محاضرات

في

النثر العباسي

إعداد

د. عزت عبد العليم محمود

مدرس الأدب العباسي والنقد

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

العام الجامعي

٢٠٢٢-٢٠٢٣م

بيانات الكتاب

الكلية: الآداب بقنا

الفرقة: الثالثة

التخصص: اللغة العربية

عدد الصفحات: ١٥٠

المؤلف : **د. عزت عبد العليم محمود**

أهداف المقرر

١- التعرف على أهم مصادر النثر العربي في العصر العباسي.
٢- جمع أساليب ومناهج دراسة النصوص النثرية في العصر العباسي .
٣- تمكين الطالب من مهارات نقد النصوص النثرية للعصر العباسي.
٤- الوصول إلى مصادر النثر العربي في العصر العباسي باستخدام شبكة المعلومات العالمية.

المحتوى

مقدمة :	٤
تمهيد : عوامل ازدهار الأدب في العصر العباسي	٨
الفصل الأول : الفنون النثرية القديمة وتطورها	١٩- ٨٧
١- الخطابة	٢٠
٢- الرسائل والتوقيعات	٤٤
٣- الوصايا	٧٥
الفصل الثاني: الفنون النثرية المستحدثة	٨٨ - ١١٥
١- المناظرات	٨٩
٢- المقامة	٩٩
الفصل الثالث: أعلام الكتَّاب في العصر العباسي	١١٦ - ١٥٠
١- ابن المقفع	١١٧
٢- الجاحظ	١٣٨

مقدمة

لا يمكن لأحد من الباحثين أو الدارسين للأدب العربي وتاريخه أن ينكر أنه قد كان للعرب في الجاهلية نثر فني له خصائصه وقيمته ،وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده[١] .

فإذا كان العرب قد " استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية ، ومن المؤكد أن الكتابة لم تكن حينئذ تؤدي بجانب أغراضها السياسية ، والتجارية أغراضها أدبية ، أو فنية من تجويد وتحبير ، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدت أغراضها خاصة في عصرها ، وانتهت بانتهاء هذا الغرض ، إنما الذي نستطيع أن ندعيه لهم حقا –عن طريق الوثائق الصحيحة– هو الأمثال ، فقط أكثروا من ضربها ، وهناك كتب مشهورة تتخصص ببحثها، وبجانب الأمثال نعرف أنه كان لهم خطابة وخطب كثيرة، وقد أخذت الخطابة عندهم صورتهم: صورة اجتماعية عامة في منافراتهم ومفاخراتهم، ومجامعهم وأسواقهم وحروبهم، وصورة خاصة في سجع الكهان، وما كان ينزلق على ألسنتهم أثناء تكهنهم" [٢].

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع الهجري: زكي مبارك ، ١/ ٥٠ و مابعدها

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي : شوقي ضيف ، ١٩/١

وقد سلمت لنا طائفة واسعة من الأمثال تناقلتها أجيالهم، والأجيال التي تلتها في الإسلام مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئتها التي صيغت عليها، وأما الخطابة وسجع الكهان، فضاعت نصوصهما إلا قليلا جدًّا، إذ بقيت بعض قطع وبعض صيغ منثورة في ثنايا الكتب التاريخية والأدبية، وما دمنا بصدد درس النثر الجاهلي فلا بد من تعقب هذه الفروع الثلاثة من الأمثال والخطابة وسجع الكهان، لنرى –بمقدار ما تسعفنا النصوص– ما أتيح لكل منها من صناعة فنية، وبراعة أدبية ، وأكبر الظن أن ما جاء من سجع الكهان، وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم، إنما هو شظايا متناثرة من صناعة بليغة كانت تستفيد من أصحابها آمادا واسعة من التعب، والعناء والجهد، والنشاط [٣].

وبظهور الإسلام دخل النثر العربي في طور جديد ، بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها. وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر ، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه ، ويلتزم أصولا محددة ، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور. [٤]

---

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي : سابق ، ٢٠/١-٤٢

(٤) مواكب الأدب العربي عبرالعصور: د. عمر الدقاق ، ص٧٧

فقد أثر القرءان الكريم آثارا بعيدة في اللغة العربية، فقد حول أدبها من قصائد في الغزل والحماسة، والأخذ بالثأر والفخر ووصف الإبل، والخيل والسيوف والرماح، ومن حكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام، إلى أدب عالمي يخوض في مشاكل الحياة والجماعة، وينظم أمورها الدينية والدنيوية. فارتقى الأدب العربي رقيا لم يكن يحلم به العرب، واتسعت آفاقه [٥].

أما أغراض النثر ومعانيه ، فإنها بلا شك قد تغيرت تغيرا محسوسا بظهور الإسلام، وتلوّن النثر في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات، وكان علي كل حال أدبا مطبوعا. وامتاز النثر في هذا العهد بالإيجاز على سنة الطبيعة العربية الأصيلة. [٦] ، حتى إذا جاء العصر الأموي أصبحت الكتابة ضرورة إدارية ملحة لا غنى عنها في إدارة شؤون الدولة والمجتمع ، في المكاتبات والدواوين المختلفة. كما كانت ضرورة اجتماعية لا غنى عنها في المعاملات. وكانت كذلك ضرورة علمية لا غنى عنها في الحركة العلمية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في أواخره ، ونتيجة لذلك كله توسع انتشار الخط واستعمال الكتابة، إبان ذلك العصر، توسعا عظيما ، نظراً لإقبال الناس على طلبه. وقد كانت لمن يعرف الكتابة مكانة رفيعة عند الناس، إذ كانوا يعرفون له قدرة، وكان سعيد بن العاص يردد دائماً قوله: من لم يكتب فيمينه يسرى

---

(٥) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٤٦/١

(٦)الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم): حنا الفاخوري، ص: ٣٢٢

[٧] ، ولعل من أهم الأسباب التي هيأت لرقي الكتابة الفنية في هذا العصر تعريب الدواوين في البلاد المختلفة [٨] وتعقد الحياة السياسية ، وكثرة الأحزاب والمذاهب . [٩]

(٧)صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : القلقشندي ، ١/ ٣٧

(٨)النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: عبدالحكيم بلبع، ص١٢٢

(٩)السابق ، ص ١٢٥

تمهيد

عوامل ازدهار الأدب في العصر العباسي

جاءت الخلافة العباسيَّة بمجتمعٍ " يختلف فى تكوينه وتركيبه وثقافته وعاداته عن المجتمعات السابقة فى صدر الإسلام وعهد بنى أميَّة ومرحلة النقلة من الأمويَّة إلى العباسيَّة ، إنَّه مجتمعٌ نشأ أبناؤه وولدوا فى ظلِّ " العباسيَّة " بكلِّ ما تميَّزت به من سلوكٍ ثقافيٍّ ، وانفردت به من تحلُّلٍ اجتماعيٍّ جاء نتيجةً لتغيُّر المجتمع من عربيٍّ السلوك إلى فارسيٍّ السمات ، ومن إقليميٍّ العادات أو بشكلٍ أدقّ من ريفيّ العادات إلى مدنيّ المنزع والمسلك "[١٠].

إنَّ الحياة السياسيَّة و الاجتماعيَّة والثقافية فى دولة بني العباس – خاصَّةً في القرنين الثانى والثالث الهجريين– قد أصبحت " زاخرةً بكثيرٍ من المستجدات التى طرأت على بنية المجتمع الاسلامى ، وهى امتدادٌ طبيعىٌّ لما كان سائدًا فى النصف الثانى من القرن الأول ، إذ تأثرت الأحوال الاجتماعية حينذاك بعوامل لها شأنها فى تشكيل وجه المجتمع الجديد ، هذه العوامل التي ساهمت فى تغيُّر وضع الجماعة المسلمة من العرب والموالى ، وامتزاج الحضارات المختلفة ، وتأثيرها فى حياة الناس من حيث مستوى المعيشة والخروج على التقاليد ، والتحلل من الالتزام بأساليب العيش القديمة "[١١] ، ونتيجة لكل هذا تطور النثر تطوراً كبيراًُ فبعد أن كاد يكون مقصوراً على

(١٠)الشعر والشعراء في العصرالعباسي الأول: مصطفى الشعكة ، ص ١٧١ .

(١١)موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى : محمد زكى العشماوى ، ص ٥٢ .

الخطب والرسائل ، مع ما فيها من قصر وإيجاز ، غدا وسيلة للتعبير الأولي ، لما اقتضاه انتشار العلم واتساع آفاق المعرفة ، وتنوع أساليب الحياة . وازدهار الصناعة والتجارة والزراعة ، فوضعت الكتب المطولة والتصانيف الضخمة ، في اللغة ، والأدب ، والنقد ، والفلسفة ، والعلم ، والدين .

ومن خلال هذه المستجدات يمكننا الوقوف على أهم الأسباب التى أدت إلى تطور النثر العربي تطورًا ملحوظا مع قيام الخلافة العباسية وأهمها :

١-تعدد المذاهب الدينية والسياسية :

اتَّسمت الدولة العباسية، منذ بداية نشأتها، بتغلغل الصراعات فيها؛ نتيجةً لتعدُّد مراكز القوى المتنافسة فيما بينها، وقد ظهرت هذه المنافسة في وقتٍ مبكِّرٍ ، حتّى قبل قيام الدولة في العام (١٣٢) هـ، وبالرغم من ذلك إلَّا أنَّ الخلافة فى هذا العصر بلغت أوج قوتها ، فكانت بغداد كما كانت دمشق قبلها عاصمة سلطنةٍ مترامية الأطراف لا تقلُّ عن سلطنة رومة فى إبان مجدها ، وكان الخليفة العربى الحاكم المطلق يتصرَّف بشؤون الدولة وأموالها كما يشاء [١٢]، إلا أن ذلك لم يمنع الأحزاب والفرق الأخرى من معارضة العباسيين والخروج عليهم بالسيف والكلمة ، ولدى قيام الدولة العباسية" كان العلويون يرون العباسيين اغتصبوا دولتهم، إذ كانوا يظنون أن الخراسانيين يعملون من أجلهم ،

(١٢)أمراء الشعر العربي فى العصر العباسي : أنيس المقدسي ،ص١٠

وأن العباسيين صرفوهم عنهم بخبثهم ومكرهم [١٣] فقامت ثورات عدة للعلويين قضى عليها المنصور ، وقد تراوح تأييد العباسيين للشيعة (أو تعاطفهم معهم)؛ إذ نجد بعض الخلفاء يضيقون عليهم،ويلاحقون شعراءهم على نحو ما كنا نجده عند أبي جعفر المنصور، وبخاصة أن المنصور يعد المؤسس الحقيقي للدولة العباسية؛ إذ توطدت أركان الدولة في عهدة واستتب الأمر للعباسيين، ولا سيما أنه نجح في القضاء على المنافسين الحقيقيين له ولأولياء عهده من أبنائه؛ كقضائه على أبي مسلم الخراساني ، وتتخلص بذلك من منافس عنيد كانت أطماعه في الخلافة بادية للعيان [١٤].

وبعد عهد المنصور وتوالي الخلفاء العباسيين، نجد أن بعضهم كانوا يفرطون في التشيع ويقربون أبناء علي أبي طالب؛ كالخليفة المأمون مثلا الذي بلغ به التشيع حدًا دفعه إلى خلع أخيه المؤتمن عن ولاية العهد وتولية علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، حتى قيل : " إنه هم أن يخلع نفسه ويفوض الأمر إليه ، وهو الذي لقبه الرضا، وضرب الدراهم باسمه، وزوّجه ابنته "[١٥] ، وقد تعددت طوائف الشيعة واختلفت مذاهبهم، من الإمامية الاثنا عشرية و الكيسانية والزيدية و الرافضة .

---

(١٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ص٩٢

(١٤) صورة الخلافة في الشعر العباسي : ص٣٨

(١٥) تاريخ الخلفاء : السيوطي ، ص ٣٥١ .

٢- الفرق الكلامية وعلم الكلام :

كما ظهرت الفرق الكلامية ونشطت نشاطًا ملحوظا وكان أهمها **المعتزلة** حيث يعد المعتزلة من أبرز أصحاب الكلام الذين ظهروا في العصر العباسي ، وبخصوص نشأتهم يرى أحمد أمين أنه لما اختلفت الأمة ، في وقت الحسن البصري ، فيمن يكثر من الكبائر من الأمة؛ فزعمت الأزارقة من الخوارج أنه مشرك كافر، وقالت الأباضية منهم أنه موحد كافر وليس بمشرك. وزعمت البكرية أنه منافق .وقال الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين أنه مؤمن بتوحيده ومعرفته بربه، وتصديقه لكتب ربه ورسوله، فاسق بكبيرته؛ فخرج واصل بن عطاء عن أقوال الأمة في هذا الأصل، وزعم أنه فاسق، لا مؤمن، ولا كافر، وجعل الفاسق في منزلة بين المنزلتين ... فلما رأى الحسن خلاف واصل على الأمة، طرده عن مجلسه، فاعتزل إلى سارية من سواري المسجد وأظهر بدعته عندها [١٦].

وقد ظهر علم الكلام نتيجة للتقدم العلمي ورقي الحياة العقلية في العصر العباسي .ويعرفه ابن خلدون بقوله:هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد[١٧].

---

(١٦) ضحى الإسلام: ٨٣/١

(١٧) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٥١.

٣ – الموالى والشعوبية :

وقد تميّز العصر العباسيّ باختلاط كبير بين الأمم المفتوحة وامتزاجها في السكن والمصاهرة وفي الحياة الاجتماعية والمهن والحرف ..إلخ، بحيث غدت أحياء المدن الكبرى تعجُّ بالعرب والهنود والأحباش والفرس والترك والأكراد والروم والأرمن وغيرهم، وبحيث أصبح العربي خالص الدم في بغداد - عاصمة العباسيين - نادرًا، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب كانت أمهاتهم من السنديّات أوالفارسيّات أو الحبشيّات أو التركيّات، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم ، غير أنها لم تكد تدخل في نطاق الثقافة العربية حتّى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربيّ امتزاجًا قويًّا، فإذا بنا إزاء حضارة تتألف من أجناس وعناصر مختلفةٍ، فمضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي حتّى غدت كأنها جنسٌ واحدٌ.

ومن هنا أخذت الشعوبيَّة [١٨] تظهر على ساحة المجتمع كحركةٍ مناهضةٍ للعنصر العربيّ يعلنها شعراء الموالى صريحةً مدويَّةً فى أسلوبٍ من الفخر بالعنصر الفارسيّ ومجده القديم[١٩] ، فقد رأى الموالى أن العرب فى القرن الأول ، وبالتحديد فى خلافة بنى أمية قد خامرهم شعور بأنَّ العربيَّ

---

(١٨) الشعوبيّة: نزعةٌ في العصر العباسى تنكر تفضيل العرب على غيرهم ، وتحاول الحطَّ منهم ، فالشُّعوبيون :قومٌ متعصبون على العرب لا يرون لهم فضلاً على غيرهم من الأمم، إن لم يكونوا أقلَّ منهم شأنًا ومنزلةً ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي : محمد نبيه حجاب ، ص١ .

(١٩)الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى : ص : ١٢٨ .

المسلم خُلِق ليسود ، وخُلِق غيره ليخدم [٢٠] ، وأنَّهم أهل السايسة والحرب بينما الموالى أصحاب المهن اليدوية كالصناعة والزراعة والتجارة ، والحياكة وغير ذلك [٢١] ؛ في حين " رأى العرب أن العروبة شرف لا يطوله الموالى الذين لم يظهر فيهم الاسلام ، وشعروا بأفضليتهم على غيرهم ، رغم أن هذا الشعور متى وجد فإنَّه يناقض المبادئ السامية التى يدعو إليها الدين الإسلاميّ ، لأنَّه مبنيٌّ على مفاهيم اجتماعيةٍ قد يكون محورها العصبيَّة الجنسيَّة " [٢٢] .

وكان لدخول هذه العناصر غير العربية حينئذٍ أثرٌ كبيرٌ فى الأحوال الاجتماعية وفى النتاج الحضارى الذى وافق العصر ، فقد امتزجت الحضارة العربية بغيرها من الحضارات الإنسانية ، وبخاصة الفارسية ، فكان أن وجدت حياةٌ جديدةٌ تتسم بالترف ، والثراء ، ومحاولة إعادة تشكيل النظم الاجتماعيَّة ، والسياسيَّة للدولة الإسلاميَّة على مثال النظم والقيم الساسانية التى كانت تمثل فى نظر هؤلاء الموالى ذروة الكمال للثقافة الانسانية[٢٣] .

---

(٢٠) العصر العباسى الأول : عبدالعزيز الدورى ، ص ٦ .

(٢١) فى الشعر العباسى الرؤية والفن : الدكتور عز الدين إسماعيل ، ص٧٠ .

(٢٢) دولة بنى العباس : شاكر مصطفى ، ١ /٢٤ .

(٢٣)دراسات فى حضارة الاسلام : ص٨٨ .

٤- النقل والترجمة :

حيث عرف العصر العباسي حركاتٍ ثقافيةً وتياراتٍ فكريةً متباينةً بفضل التداخل بين الأمم ، وكان لنقل التراث اليونانيّ والفارسيّ والهنديّ ، وإقبال العرب على الثقافات المتنوعة أبعد الأثر في جعل العصر العباسي عصرًا ذهبيًّا في الحياة الفكريَّة ، فقد تركت الثقافات الدخيلة أثرًا عميقًا في علوم العرب وفلسفتهم ، هذا وقد انقسم عهد الترجمة في العهد العباسي إلى دورين رئيسين : أولهما يمتد من قيام الدولة العباسية ١٣٢ هـ إلى بداية عهد المأمون ١٩٨ هـ ، والآخر يبدأ بتوالي المأمون الحكم ويمتد طيلة عهده٢١٨ هـ ، ففي عام ١٤٥ هـ أسس أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية مدينة بغداد، وجعلها عاصمة الدولة الإسلامية بدلاً من دمشق، فسرعان ما ازدهرت وطغى نورها الفكري على نور البصرة والكوفة، وكان للخليفة أبو جعفر المنصور شغف بالطب والهندسة والفلك والنجوم .

وهو أول من راسل ملك الروم طالباً منه كتب الحكمة ، فبعث إليه كتاب أقليدس وبعض الكتب الأخرى ، وجمع حوله صفوة من العلماء الذين يتقنون اللغات الأجنبية، وشجعهم على ترجمة الكتب العلمية المنتقاة، وفي سبيل ذلك أنشأ ديواناً للترجمة ، فنقل جورجيوس بن جبرائيل بن بختيشوع للخليفة المنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانية .واهتم الخليفة هارون الرشيد بترجمة الكتب الأجنبية، ووسع ديوان الترجمة الذي أنشأه المنصور لنقل العلوم ، وطلب من البيزنطيين تسليمه المخطوطات اليونانية القديمة ، ومن أشهر الكتب التي

ترجمت في عهد الرشيد كتاب بطليموس الذي معناه" الترتيب الكبير في علم الفلك " كما أمر الرشيد بتعريب الكتب التي وجدها في أنقرة وعمورية وعهد بها إلى يوحنا بن ماسويه كبير المترجمين في عصره .

وأنشأ المأمون في بغداد- بيت الحكمة -الذي كان يحوي المجمع العلمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة أقام فيها طائفة من المترجمين الذين أغدق عليهم الأرزاق من بيت المال ، وكذلك أرسل المأمون البعثات إلى بلاد الروم للحصول على الكتب، وحسب قول صاحب وقد كتب إلى ملك الروم يطلب منه إرسال كتب العلوم القديمة وغيرها المخزونة لديه، فأجابه ملك الروم بعد تردد، فأرسل المأمون لذلك جماعة فأخذوا مما وجدوا وما اختاروه، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، ومايميز حركة الترجمة في عصر المأمون أن هذا الخليفة أحسن تنظيمها وجعلها مرجعاً ومنشطاً رسميين في الدولة، وأنفق من أجلها الأموال الطائلة [٢٤].

(٢٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية : كلود كاهن ، ترجمة :بدر الدين القاسم ص١٠٥ وما بعدها ، وحضارة الإسلام وأثرها على الترقي العالمي: جلال مظهر ص ٢٤٤ –٢٤٣ ، و تطور الفكر العلمي عند المسلمين: محمد الصادق عفيفي ص٣٩ .

٥- التقدم العلمي والثقافي :

وبفضل اعتناء الخلفاء واهتمامهم بالناحية الفكريَّة إلى جانب اعتنائهم بالدفاع عن حدود الخلافة العباسية، أصبحت بغداد مركز الحضارة الإسلامية اعتبارًا من بدايات القرن الثاني الهجري، وقد كان لتلك العوامل الاجتماعيَّة والثقافيَّة الجديدة الأثر الواضح في الأدب العباسي عامةً ، وليس من شك في أن هذا التشجيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلميةوالفكرية، إذ كان من يبزغ نجمه في الحلقات لا يلبث أن يستدعى إلى مقر الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء، فإذا العطايا تنهال عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً.

وقد اتسعت في ذلك الحين صنعة الوراقة، وهي تشبه في هذا العصر الطباعة والنشر، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها، فاتخذوا لأنفسهم ورّاقين ينقلون عنهم آتبهم ويذيعونها في الناس .وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات، وقد أقامت الدولة مكتبة ضخمة هي "دار الحكمة "عُنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية، ولا ريب في أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة.

كما أقبل الأدباء على الثقافات الجديدة يكتسبون منها معطياتٍ عقليةً ، وقدرةٍ على التعليل والاستنباط وتوليد المعاني، والمقارنة والاستنتاج ، فالأدب العباسيُّ جاء أغنى مما سبقه، ويدلُّ على هذا الغنى ما نراه في شعر أبي

نواس وأبي تمام وأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء، وما نراه في نثر ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان وسواهم .

ثم إن عمق الثقافة ساعد على عمق التجربة الإنسانية ، فجاء الأدب العباسي زاخرًا بالمعطيات الإنسانيَّة من حيث تصويره لجوهر الإنسان وما يتعاقب على النفس من حالات اليأس والأمل، والضعف والقوة، والحزم والفرح وغير ذلك ، كما رسم الأدب العباسي المشاكل العامة في الاجتماع والفكر والسياسة والأخلاق ، كما دونت التصانيف والكتب في شتى العلوم من علوم شرعية كعلوم الحديث والفقه وعلوم اللغة كالنحو والصرف والعروض إلى جانب علوم الطب والعمران والرياضيات والجغرافيا وغيرها من العلوم التى زخر بها العصر العباسي مما هيأ للنثر بيئة خصبة للنمو والازدهار وأسس لعقل عربي غني بالمعارف والعلوم والثقافة .

الفصل الأول

الفنـــــون النثريـــــة القديمـــــة وتطورهـــــا

الخطابة

الخطابة هي القابلية على صياغة الكلام بأسلوب يمكِّن الخطيب من التأثير على نفس المخاطب ، وقد عرفها أرسطو بأنها (قوة تتكلف الإقناع الممكن) . وقال ابن رشد الخطابة هي : (قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة)، وقد عرفت أيضا بأنها(فن مشافهة الحضور للتأثيرعليهم واستمالتهم)[٢٥].

ففن الخطابة نمط من أنماط النثر الفنِّي يعتمد مشافهة الجمهور ، ويهدفُ إلى الإقناع والاستمالة والتأثير في نفوس السامعين ، وقد اتخذها الأنبياء والمصلحون أداةً مهمة في نشر تعاليمهم ، وشد الناس إليهم. وترتقي الخطابة وتنمو بارتقاء الحياة الاجتماعية ونموها ؛ لذلك ازدهرت في بلاد اليونان ونمت نمواً عظيماً عندما اتخذها الخطيب اليوناني وسيلةً للوصول إلى السلطة ؛ ولعلَّ أرسطو هو أول من أرسى قواعد هذا الفن وأصوله حين قسمها ثلاثة أقسام هي ؛ الخطابة المشورية ، والمشاجرية ، والبرهانية [٢٦] .

وقد وجد العرب في الخطابة خير وسيلة للحث على القتال، وإثارة الحماس ، واجتلاب النفع ، واتقاء الشر ، ومقارعة الظلم ، وحقن الدماء ؛ ولهذا عنوا بها عناية فائقة، فهي من مستودعات سر البلاغة ، ومجامع الحكم ، بها

---

(٢٥) فنّ الخطابة، أحمد محمد الحوفي، ص ٥.

(٢٦) الخطابة لأرسطو : ص٣

تفاخرت العرب في مشاهدهم ، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم ، وبها يتميز الكلام ، وبها يخاطب الخاص والعام [٢٧].

ويمكننا القول أن الخطابة قد بلغت أعلى ما يمكن أن يصل إليه علم من اهتمام ورعاية وإنتاج في العصر العباسي . حيث لم يكتفِ بما توفر من تجارب عند العرب بل ترجموا ما كان عند غيرهم من آداب الخطابة وفنونها إلى العربية ، ومن الكتب المهمة التي ترجمت في هذا العصر كتاب الخطابة لأرسطو الذي ترجمه إسحاق بن حنين وعلق عليه الفارابي ، وكان لظهور الفرق الكلامية خصوصاً المعتزلة أكبر الأثر في ازدياد رونق الخطابة .

فقد أدّت الخطابة دوراً مميزاً في الصّراع السّياسي، وإدارة الحُكْم. ومن المسلّم به أن الخطابة لم تشغل الحيّز الفكري الذي شغلته في عصرها الذّهبي، إبّان حُكم الأمويين، ولكنها أيضاً لم تضعف بالصورة التي خُيّلت إلى بعض الدارسين، وخاصّة في مطالع العصر؛ إذ لا يُعقل أن يُسَاير الأدب العصر السّياسيّ مسايرة تامّة، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة.

وإنْ كانت الخطابة أقرب الفنون الأدبية إلى روح العصر المعيش، وما يسوده من اتجاهات ومذاهب وتيّارات، يتسلهمها الخطباء، وينفعلون بها؛ ولاسيما أنّ جُلَّ الخطباء هم ولاة الأمر، أو مَن يمثّلهم. والعصر العباسيّ الأوّل يُعَدُّ . من بعض الوجوه . امتداداً للعصر الأموي؛ إذ لم يَخْلُ من الفتن

(٢٧) صبح الأعشى: ٢٥٣/١ .

والثورات وعدم الاستقرار السّياسيّ الذي يُعَدُّ مرتعاً خصيباً لازدهار الخطابة السياسيّة على وجه الخصوص[٢٨] .

وقد كشف العباسيون عن مواهب خطابيّة نادرة، ومقدرة بلاغية فائقة، يقول الجاحظ في بيان بلاغتهم: "وجماعةٌ من ولد العبّاس في عصرٍ واحد، لم يكن لهم نظَراء في أصالة الرّأي، وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدّولة، وبرجال الدّعوة، مع البيان العجيب، والغور البعيد، والنفوس الشّريفة، والأقدار الرّفيعة؛ وكانوا فوق الخُطَباء، وفوق أصحاب الأخبار؛ وكانوا يَجِلُّون عن هذه الأسماء إلا أن يَصِفَ الواصفُ بعضَهم ببعضِ ذلك[٢٩]".

ومن خطباء العبّاسيين أبو العبّاس السّفّاح وأخوه المنصور وأعمامه عبد الله بن علي وداود بن علي؛ الذي أشاد الجاحظ بفصاحته، فقال: "كان أنطقَ النّاس، وأجودَهم ارتجالاً واقتضاباً للقول، ويُقال إنّه لم يتقدَّم في تحبير خطبةٍ قَطُّ. وله كلامٌ كثير معروف محفوظ"[٣٠]. وقال أيضاً: "وكان عبد الله بن عليّ، وداود بن عليّ، يُعْدلان بأمّة من الأمم"[٣١].

---

(٢٨)الخطابة السياسية في العصر العباسي الأول : د. قحطان صالح الفلاح ، مجلة التراث ،ع ١٠٦ ص ١٨٢

(٢٩) البيان والتبيين للجاحظ ، ٣٣٤/١.

(٣٠) البيان والتبيين ٣٣١/١.

(٣١)نفسه ٣٣٥/١.

ومن خطبائهم صالح بن عليّ، وابنه عبد المَلك، وسليمان بن جعفر والي مكة ، وقد قيل: إنّ أهل مكة قالوا: "إنّه لم يَرِد عليهم أميرٌ منذ عَقَلوا الكلام، إلا وسليمان أَبْيَنُ منه قاعداً، وأخطَبُ منه قائماً"(٣٢).

ومن خطبائهم الخلفاء أيضاً المهديّ والرشيد والمأمون، وثمّة أقوال تشيد بفصاحتهم ولَسَنِهم، ومن خطباء آل عليّ ﷺ محمد بن عبد الله بن الحسن الملقّب بـ (النَّفْس الزَّكية)، وأخوه إبراهيم، ومن غير العرب البرامكة وممن شُهر بالخطابة من البرامكة : يحيى بن خالد البرمكي وولده جعفر ، وكان جعفر بن يحيى خطيباً لسنا" قد جمع الهدوء ، والتمهل والجزالة والحلاوة ، ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لكانه(٣٣)" ، ومن خطباء الموالى أيضا بنو سهل وطاهر بن الحسين ، وغيرهم (٣٤) .

هذا ويمكننا تقسيم الخطابة في العصر العباسي من حيث موضوعها والغرض منها إلى : خطابة حفلية (اجتماعية) وخطابة سياسية وخطابة دينية ؛ وذلك على النحو التالى :

أولا- الخطابة الحفلية (الاجتماعية) :

ويراد بها الخطب التي تلقى في المواسم الكبار ، والمحافل العظام ، وفي مجالس الخلفاء والملوك والأمراء ، وفي الأندية العامة أو الخاصة ، لغرضٍ من

---

(٣٢)نفسه ٣٣٣/١.

(٣٣) نفسه ١٠٦/١ .

(٣٤) الخطابة السياسية في العصر العباسي الأول ، ص ١٨٤ .

الأغراض التي تتعلق بالحياة ومظاهرها الاجتماعية. وإذا كانت هذه الخطب تعبر عن الظواهر الاجتماعية وما يتعلّق بأحوال المجتمع فإنّها لا تقتصر على موضوعٍ واحد[٣٥]، فقد تعددت مضامينها تبعاً للظروف والمناسبات الداعية إليها ، ومنها خطب الوفود التى كانت تفد على قصور الخلفاء والوزراء والأمراء ، حيث تنوعت موضوعاتها فكانت الأغراض التي تناولتها خطب الوفود كثيرة تمّثل غايات واتجاهات شتّى تنصب حول الثناء والتهاني والشكر والشكوى والاستعطاف والوصف وما إلى ذلك من مقاصد وأغراضٍ أخرى .

ومن ذلك ما جاء في خطبة تميم بن جميل السدوسي ، وكان تميم قد خرج بشاطئ الفرات على المعتصم ، واجتمع إليه كثير من الأعراب فعظم أمره ، وبعد ذكره ، فكتب المعتصم إلى مالك بن طوق في النهوض إليه، فبدد جمعه وظفر به فحمله موثقاً إلى المعتصم ، فلما مثل بين يديه دعا المعتصم بالنطع والسيف فأحضرا ، فجعل تميم ينظر إليهما ولا يقولُ شيئاً ، وكان جسيماً وسيماً ورأى المعتصم ، أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره فقال :يا تميم إن كان لك عذر فأت به ، أو حجة فأدلِ بها ، فقال :أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول:

(الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيءٍ خلَقه ، وبدأ خلق الإنسانِ من طين ، ثم جعل نسَله من سلالة من ماء مهين ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تخرس

(٣٥) الخطابة العربية في العصر العباسي الأول : د .حسين عبد العالي اللهيبي ، مجلة القادسية ، ع ٣، ص٩٥

الألسن الفصيحة ، وتُعمى الأفئدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة ، وكبر الذنب ، وساء الظن ، ولم يبق إلاَّ عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما منك ، وأسرعهما إليك أولاهما بإمامتك ، وأشبههما بخلافتك ؛ فتبسم المعتصم وقال : كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل، اذهب فقد غفرتُ لك) [٣٦].

ومنها أيضا خطبة ابن عتبة التي جمعت بين التهنئة والتعزية التي ألقاها في مجلس المهدي بن المنصور يهنئه بالخلافة ويعزيه بموت أبيه المنصور فقال:

(آجر الله أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ،ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية، واحتسب عنده أعظم الرزية) [٣٧].

ومنها أيضا خطب النكاح والفكرة العامة في هذه الخطب هي إقناع ذوي الفتاة بمن يرغب الأصهار إليهم ، ويؤكد الخطيب في هذا النوع من الخطب على أهمية الزواج ، ومقدار ما يبذله الخاطب من الصداق ، كما كان يشير إلى حسن الاختيار ، وحسن الظن بالخاطب ، ويعرِّف بمزاياه وفضائله ، ومنه أيضا خطب التأبين وكذلك خطب التعزية في الأبناء أو البنات أو الأخوة وذوى القربى ، ولا تخلو هذه الخطب من جمال التعبير ، وحسن التنسيق الناجم عن الإعداد والتدبيج.

---

(٣٦) العقد الفريد لابن عبد ربه ، ١٥٨/٢ .

(٣٧) كتاب التعازي والمراثي: ص٦٢ .

ثانيا- الخطابة السياسية :

ما إن ظَفِرَ العباسيون بالخلافة حتى مضى خطباؤهم يؤكّدون أنّهم أصحاب الحقّ الشرعيّ فيها، وأنّهم أولى النّاس بها، ويبيّنون سياستهم تجاه الرعيّة، وكيف أدالهم الله من حُكم الأمويين وجَوْرهم وانتقم لهم بأسيافهم، بعدما جاروا وظلموا، وجانبوا سنّة الرسول الكريم في العدل والإنصاف، وانتهكوا حُرماتِ الدَّين، وقَتَلوا آل عليّ وشيعتهم قتلاً ذريعاً، وتركوهم طُعْمَةً للسّيف والنّار والتشريد. فهذا أبو العبّاس السّفّاح (ت ١٣٦ هـ) لمّا بويع بالخلافة (سنة ١٣٢ هـ) في الكوفة، صَعِد أعلى المنبر . كما يُروى . وصَعِدَ عمّه داود بن عليّ (ت ١٣٣ هـ) فجلس دونه ، فخطب أبو العبّاس متحدّثاً عن قرابتهم من رسول الله ، وأنّ الله اختارهم للإسلام، واصطفاهم له، وأيّده بهم، وتلا آياتٍ من القرآن الكريم خاصّة بأهل البيت فقال [٣٨]:

(الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ،وخصنا برحم رسول الله وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحيما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القران : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس

(٣٨) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤٢٥/٧ . ٤٢٦ ،والكامل في التاريخ لابن الأثير ٨/٥ . ٩.

أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ، وقال (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) وقال :(وأنذر عشيرتك الأقربين) وقال:(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى) وقال:(واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى) فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم وإخوانا على سرر متقابلين في آخرتهم فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماصا منها ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولي نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث

أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير) .

فجلس السفاح على المنبر، وقام عمّه داود بن عليّ دونه على مراقي المنبر، وخَطَب قائلا[٣٩] :

(الحمد لله شكرا شكرا شكرا الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد أيها الناس الان أقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها وعاد السهم إلى النزعة ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبني قصرا وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا ، وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله

(٣٩) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤٢٧/٧ .

تبارك وتعالى وذمة رسوله وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله تبا تبا لبني حرب بن أمية وبني مروان آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الأثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار وتجلبب الآصار ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا للقوم الظالمين وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ؛ فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه شدة الوعك وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين الشاب المتكهل

المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى فعج الناس له بالدعاء ثم قال :

يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدلكم على أهل الشأم ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ومن عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم فإن لكل أهل بيت مصرا ، وإنكم مصرنا ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس فأعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا) .

وبذلك يمكننا القول أن الخطابة السّياسية فى مطالع العصر العباسيّ الأوّل، في عهد السّفّاح قد تناولت المعاني والأفكار السيّاسية ذاتها؛ من حيث بيان حقّهم في الخلافة، والتماس الشرعيّة الدّينية لهذا الحقّ، عن طريق قرابتهم من الرسول ﷺ، وكذلك بيّنت خُطب هذه الفترة مظالم الأمويين ،وعلى النقيض أشادت بأهل خُرَاسان، شيعتهم وأنصارهم، إضافة إلى بيان سياستهم في الرعية، والموازنة بين حُكمهم، وحُكم بني أميّة، "وذلك كلّه ببيانٍ رائع، وخطب

قيّمة، وقول بارع، وبلاغة واصلة إلى أعماق النفوس"[٤٠]. وتعكس هذه الخطب حرص العبّاسيين على بيان شرعية خلافتهم ونظريّتهم في الحُكم، ريثما تثبت أركانهم في السّلطة.

وفي عصر المنصور طرأت أحداثٌ جديدة على الواقع السّياسيّ آنذاك؛ إذ ثارت الفتن وظهرت الخصومات، فواكبتها الخطابة على نحو مميّز ، ولعلّ أبرز هذه الأحداث، ما كان من ثورة محمد بن عبد الله الملّقب بالنَّفْس الزّكية (سنة ١٤٥ هـ)[٤١]، وكان خطيباً فذّاً. وقد رأى آل عليّ أن العبّاسيين اغتصبوا الأمر منهم ، وأنّهم أحقّ النّاس بوراثة الرسول ﷺ، فهم بنو ابنته ، فقابلهم المنصور الحجّة بالحجّة والسّيف بالسيّف. فعندما علم بخروج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله شن المنصور عليه درعه وتقلد سيفه وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

مالى أكفكف عن سعد وتشتمنى. . ولو شتمت بنى سعد لقد سكنوا

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم .. لبئست الخلتان الجهل والجبن

(أما والله لقد عجزوا عما قمنا به فما عضدوا الكافى وما شكروا المنعم فإذا حاولوا أشرب رنقا على غصص وأبيت منهم على مضض كلا والله لا أصل ذا رحم حلول قطيعتها ولئن لم يرض بالعفو ليطلبن مالم يوجد عندى فليبق ذو نفس على نفسه قبل أن تمضى فلا يبكى عليه) .

---

[٤٠] الخطابة (أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب)، للشيخ محمد أبو زهرة، ص ١٢٥.

[٤١] انظر: تاريخ الأمم والملوك، ٩٢/٨ وما بعدها.

ولم يكن محمد بن عبدالله بن الحسن بأقل منه فصاحة ، فنجد له خطبة بليغة يقول فيها :

(أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبى جعفر من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه وتصغيره الكعبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيروا عهد نبيك وأمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق على الأرض منهم أحدا) .

وبعد المنصور مالت الخطابة عامّة إلى الجانب الوعظي ذي المضامين الدّينية، مع مواكبتها لأحداث العصر؛ حتى جاءت الفتنة الكُبرى في هذا العصر التى كانت بين الأمين والمأمون؛ فبعث الأمين وفدا إلى المأمون يفاوضونه فى النزول عن الأمر فقام المأمون فحمد الله المأمون وأثنى عليه ثم قال [٤٢]:

(قد عرفتمونى من حق أمير المؤمنين أكرمه الله مالا أنكره ودعوتمونى من الموازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم والمسارعة إلى ماسره ووافقه حريص وفي الروية تبيان الرأى وفي إعمال الرأى نصح الاعتزام والأمر الذى دعانى إليه أمير المؤمنين أمر لا أتأخر عنه تتبطا ومدافعة ولا أتقدم عليه اعتسافا وعجلة وأنا في ثغر من ثغور المسلمين

---

[٤٢] جمهرة خطب العرب : ١٠٣/٣ .

كلب عدوه شديد شوكته وإن أهملت أمره لم امن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية وإن أقمت عليه لم امن فوت ما أحب من معونة أمير المؤمنين وموازرته وإيثار طاعته فانصرفوا حتى أنظر في أمري ويصح الرأى فيما أعتزم عليه من مسيرى إن شاء الله) .

حتى إذا استحرّ الصّراع بينهما عنيفاً، ورأى الأمين الأمر قد تولى عنه وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجند فأشرف عليهم وقال[٤٣] :

(الحمد لله الذي يرفع ويضع ويعطي ويمنع ويقبض ويبسط وإليه المصير أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الأموال وحلول النوائب وتوفد المصائب حمدا يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى أحسن العزاء وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته وأن محمدا عبده الأمين ورسوله إلى المسلمين آمين رب العالمين .

أما بعد يا معشر الأبناء وأهل السبق إلى الهدى فقد علمتم غفلتى كانت أيام الفضل بن الربيع وزير على ومشير فمادت به الأيام بما لزمنى به من الندامة في الخاصة والعامة إلى أن نبهتمونى فانتبهت واستعنتمونى في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم فبذلت لكم ماحواه ملكى ونالته مقدرتى مما جمعته وورثته عن آبائى فقودت من لم يجز واستكفيت من لم يكف واجتهدت

---

[٤٣] انظر : تاريخ الرسل والملوك ٩٢/٨ وما بعدها.

علم الله في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه واجتهدتم علم الله في مساءتى في كل يوم ماقدرتم عليه من ذلك توجيهي إليكم على بن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنن عليكم فكان منكم ما يطول ذكره فغفرت الذنب وأحسنت واحتملت وعزيت نفسى عند معرفتى بشذوذ الظفر وحرصى على مقامكم مسلحة بحلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ومن على يدي أبيه كان فخركم وبه تمت طاعتكم عبد الله بن حميد بن قحطبة فصرتم من التألب عليه إلى مالا طاقة له به ولا صبر عليه يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفا إلى عامين وعلى سيدكم متوثبين مع سعيد الفرد سامعين له مطيعين ثم وثبتم مع الحسين على فخلعتموني وشتمتموني وانتهبتموني وحبستموني وقيدتموني وأشياء منعتموني من ذكرها حقد قلوبكم وتلكى طاعتكم أكبر وأكثر فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام)

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨هـ وحمل رأسه إلى المأمون بخراسان ، فإذا وصلنا إلى عصر المعتصم، ومن بعده الواثق، لم نعثر على خطب سياسيّة، يمكن الوقوف عليها فيما بين أيدينا من مصادر. ويمكن القول إنّ الخطابة السّياسية نشطت وازدهرت في مطالع العصر العباسيّ الأوّل، ولاسيّما على ألسنة العبّاسيين أنفسهم، كالسّفّاح والمنصور وأعمامهما داود وعبد الله وصالح وغيرهم؛ أي عند قادة الثورة وزعمائها، وذلك لوظيفة الخطابة في تبيان النظريّة السّياسيّة للسّلطة الحاكمة، وتوطيد أركان الحُكم، والرّدّ على المعارضة، وتوضيح كيفيّة إدارة الدّولة وشؤونها المختلفة. وبكلمة أخرى: أولى

العبّاسيّون الأوائل اهتماماً بالغاً بالخطابة؛ لارتباطها الوثيق بالخطابين الدّيني والسّياسيّ، اللازمين لسياسة العباد والبلاد [٤٤].

(٤٤)الخطابة السياسية في العصر العباسي الأول : ص ١٩٢ .

ثالثا- الخطابة الدينية:

وتقوم الفكرةُ العامة في هذا اللون من الخطابة الدينية على الوعظ والتذكير، وغيرها من المعاني التي تسهم في إبراز الصورة التي يريد الخطيب عرضها وإيضاحها للناس، ولا شك إن الوعظ والتذكير له أثره الواضح ، ومكانته البارزة في حياة المسلمين ، فهو من دعائم الإسلام ؛ لهذا نجد الخطيب في هذا اللون من الخطابة يلجأ إلى وعظ الناس وإرشادهم، وتحذيرهم من فواتن الدنيا، والانسياق وراء ملذاتها، كما يلجأ إلى التذكير بالموت واليوم الآخر ، وما ينتظر الإنسان من عقاب وثواب(٤٥).

وقد تمثل هذا النوع من الخطب في خطبة الجمعة و العيدين وقد كان يقوم عليها الخلفاء العباسيون أنفسهم في بداية العصر العباسي ؛ ومن ذلك خطبة المهدى (٤٦):

الحمد لله الذى ارتضى الحمد لنفسه ورضى به من خلقه أحمده على آلائه وأمجده لبلائه وأستعينه وأومن به وأتوكل راض بقضائه وصابر لبلائه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله إلى خلقه وأمينه على وحيه أرسله بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم واقتراب من الساعة إلى أمة جاهلية مختلفة أمية أهل عداوة وتضاغن وفرقة وتباين قد استهوتهم شياطينهم وغلب عليهم قرناؤهم

(٤٥)الخطابة العربية في العصر العباسي الأول ص٩٩.

(٤٦)العقد الفريد : ٤ /١٨٨ وما بعدها .

فاستشعروا الردى وسلكوا العمى يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ويندر من عصاه بالنار وأليم عقابها (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم) .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإن الاقتصار عليها سلامة والترك لها ندامة وأحثكم على إجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته والانتهاء إلى ما يقرب من رحمته وينجى من سخطه وينال به ما لديه من كريم الثواب وجزيل المثاب فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب يوم توقفون بين يدى الجبار وتعرضون فيه على النار (يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .

فإن الدنيا دار غرور وبلاء وشرور واضمحلال وزوال وتقلب وانتقال قد أفنت من كان قبلكم وهى عائدة عليكم وعلى من بعدكم من ركن إليها صرعته ومن وثق بها خانته ومن أملها كذبته ومن رجاها خذلته عزها ذل وغناها فقر والسعيد من تركها والشقى فيها من اثرها والمغبون فيها من باع حظه من دار اخرته بها فالله الله عباد الله والتوبة مقبولة والرحمة مبسوطة وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم وتندموا فلا

تنالون الندم في يوم حسرة وتأسف وكآبة وتلهف يوم ليس كالأيام وموقف ضنك المقام إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول الله تبارك وتعالى (وإذا قرئ القران فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) إلى اخر السورة أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به وأنهاكم عما نهاكم عنه وأرضى لكم طاعة الله وأستغفر الله لى ولكم .

وخطب هارون الرشيد فقال[٤٧] :

الحمد لله نحمده على نعمه ونستعينه على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقا ونتوكل عليه مفوضين إليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل ودروس من العلم وإدبار من الدنيا وإقبال من الاخرة بشيرا بالنعيم المقيم ونذيرا بين يدى عذاب أليم فبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإن في التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات وفوزا بالجنة ونجاة من النار وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار وتعلن فيه الأسرار يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التناد يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد من حسنة يوم الازفة إذ القلوب لدى الحناجر

(٤٧)العقد الفريد : ٤ /١٩٠ وما بعدها .

كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة فقد جاء في الخبر أن النبي قال لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له إنكم سفر مجتازون وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين ، قال الله عز و جل وقوله الحق ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة وقال : (وإني لغفار لمن تاب وامن وعمل صالحا ثم اهتدى) .

وإياكم والأمانى فقد غرت وأردت وأوبقت كثيرا حتى أكذبتهم مناياهم فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن المثلاث فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال فرغب بالوعد وقدم إليكم الوعيد وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلا فجيلا وعهدتم الاباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله

يقول الله عز و جل : (وإذا قرئ القران فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) آمركم بما أمركم الله به وأنهاكم عما نهاكم عنه وأستغفر الله لى ولكم .

ومن جيد الخطب الدينية خطبة الواثق بالله هارون بن المعتصم التي خطبها في عيد الفطر، ولم يصل إلينا منها إلاّ هذا ا لمقطع الذي يتضمن الوعظ والتذكير ، يقول[٤٨]:

(من اتبع هواه شرد عن الحقّ ومنهاجه ، والناصح من نصح نفسه وذكرها ما سلف من تفريطه فظهر في نيته ، وثاب من غفلته ، فورد أجله ، وقد فرغ من زاده لمعاده ، وكان من الفائزين) .

ولم يقف أمر الخطابة الدينية عند الخلفاء والولاة فقط بل إلى جانب خطب الخلفاء كانت هناك خطب الوعاظ الذين كانوا يقومون على وعظ الخلفاء العباسيين ، ومنهم عمرو بن عبيد واعظ المنصور ، وقد دخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد ما بايع للمهدى فقال له[٤٩] : يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين فقال له عمرو: يا أمير المؤمنين أراك قد وطدت له الأمور وهي تصير إليه وأنت عنه مسئول فاستعبر المنصور.

---

(٤٨)أدب الخطابة الدينية : ص١٨ .

(٤٩)جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة : ٤٥/٣ .

.

وقال له :عظني يا عمرو قال يا أمير المؤمنين إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منها ببعضها وإن هذا الذي في يديك لو بقى في يد غيرك لم يصل إليك فاحذر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده فوجم أبو جعفر من قوله .

فقال له الربيع يا عمرو غممت أمير المؤمنين فقال عمرو إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه قال أبو جعفر فما أصنع قد قلت لك خاتمى في يدك فتعال وأصحابك فاكفنى قال عمرو ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق .

ومن الوعاظ أيضا صالح بن عبد الجليل واعظ المهدي ، وقد دخل يوما على المهدى فسأله أن يأذن له في الكلام فقال تكلم فقال[٥٠] :

إنه لما سهل علينا ما توعر على غيرنا من الوصول إليك قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله بإظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى عن انقطاع عذر الكتمان ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ووعدت الله وحملة كتابه إيثار الحق على ما سواه فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص ليتم مؤدينا على موعود الأداء عنهم وقابلنا على موعود القبول أو يزيدنا تمحيص الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ويحلينا حلية الكذابين فقد

(٥٠)البصائر والذخائر لأبي حيان : ٣٢٥/١ .

كان أصحاب رسول الله يقولون من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابا من أقبل إليه العلم وأدبر عنه ومن أهدى الله إليه علما فلم يعمل به فقد رغب عن هدية الله وقصر بها فاقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لا قبول سمعة ورياء فإنه لا يعدمك منا إعلام لما تجهل أو مواطأة على ما تعلم أو تذكير لك من غفلة فقد وطن الله عز و جل نبيه عليه الصلاة و السلام على نزولها تعزية عما فات وتحصينا من التمادى ودلالة على المخرج فقال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) فأطلع الله على قلبك بما ينور الله به القلوب من إيثار الحق ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك ير أثرك وأثر الله عليك فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن الوعاظ ابن السماك واعظ الرشيد ، وذكر محمد بن هارون عن أبيه قال حضرت الرشيد وقال له الفضل بن الربيع يا أمير المؤمنين قد أحضرت ابن السماك كما أمرتنى قال أدخله فدخل فقال له عظنى قال يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك واقف غدا بين يدى الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يخالج أحدا شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه ، وأقبل على أمير المؤمنين فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا يعنى الفضل

بن الربيع ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هارون حتى أشفقنا عليه وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا [٥١] .

ودخل ابن السماك على الرشيد يوما فبينا هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، فقال له ابن السماك على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشريها قال بنصف ملكي قال اشرب هنأك الله فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال بجميع ملكى قال ابن السماك إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف[٥٢] .

ومن كلّ ما تقدم يتّضح لنا أن الخطابة في هذا العصر قد أدركت حظّها المرجو من الرقي والازدهار ؛ فقد ظلّت محتفظة بعناصر بقائها ونموها ونشاطها، من خلال ما بلغته من قيمة فنية وجمالية في مستواها العام عند تأمل خصائصها الموروثة .... فضلاً عن كثرة الخطباء ممن ملكوا أعنّة الفصاحة ، وأزمة البيان ، وما لهم من قدرة فائقة على الإلقاء والتأثير في نفوس السامعين ،

---

(٥١) تاريخ الأمم والملوك للطبري : ٢٢/٥.

(٥٢) نفسه : ٢٢/٥.

كما أنّهم عنوا عناية فائقة بإعدادها ، والتأنق في صياغة أسلوبها وترتيب أفكارها.

الرسائل والتوقيعات

الرسالة في الأصل الكلام الذي أرسل إلى الغير وخصت في اصطلاح العلماء بالكلام المشتمل على قواعد علمية والفرق بينها وبين الكتاب على ما هو المشهور إنما بحسب الكمال والنقصان فالكتاب هو الكامل في الفن والرسالة غير الكامل فيه[٥٣] .

وقد مضت الكتابة في العصر العباسي الأول على ما كانت عليه أيام الدولة الأموية من البلاغة ومتانة الأسلوب وجودة اللفظ ووضوح المعنى وبيان القصد وسهولته ، فإن الأفكار التي اعتمد عليها كُتاب ديوان الرسائل في كتاباتهم بنيت على موروث تاريخهم العريق مما تركه الأجداد من آثار بديعة أو مثل سائر أو فكرة جليلة أو حكمة رائعة عملوا بها ، وكل ذلك جعل الرسالة التي كانت تكتب تصل إلى القلب فتهزه وتؤثر فيه وترسَّم الكُتاب ذلك النهج حتى أصبحوا من فصحاء القوم وأمراء البيان مما حدا بالكُتاب أن تتعدد أغراضهم وتتنوع أساليبهم ومال مُعظمهم إلى التفنن في اللفظ والسهولة في العبارة والإطالة في المقدمات فكانت صفة الإطناب في الكتابة مهيمنة في كل ما كُتب لبيعة خليفة أو عهد الأمير أو انتصار أو طلب لنعمة ، وأيضًا المبالغة في مدح الممدوح وذم المذموم ، وبقيت الكتابة تتقلب في أكُف الكُتاب وبأدواتهم ولوازمها تدون[٥٤] .

---

(٥٣) كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي بن علي التهانوي ، ص ٥٨٤.

(٥٤)عصر المأمون : أحمد فريد رفاعي ، ص ٤٠٥ – ٤٠٦ .

أخذ خلفاء الدولة العباسية يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقيهم، ولهذا السبب كثر الكُتَّاب، ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وازداد التنافس بينهم. فقد كان العمل في ديوان الرسائل مصدر رزق لهم، وغدا التفوق في فن الترسل وسيلة للحصول على ولاية أحد الأقاليموقد لمع اسم كتاب الدواوين في سماء الكتابة الفنية خاصة في العصر العباسي الذي انتشر فيه التدوين على نطاق واسع ، وكان هؤلاء الكتاب يختارون من الفصحاء البلغاء ، وقد تحولوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة ، إذا كانوا يتعهدون من تحت أيديهم من صغار الكتاب ، وكانوا لا يزالون يراجعونهم فيما يكتبون من رسائل ، فإذا وقفوا منهم على ناشئ تنم كتابته عن تفنن في القول شجعوه ، وربما قدموه إلى الخليفة ، أو إلى بعض الوزراء ، فلمع اسمه ، وتألق نجمه [٥٥] .

وقد بلغ من مكانة الكتاب في ذلك العصر أن رفع الملوك من بنى العباس بلغاء كتابهم إلى الوزارات ، وقلما رفعوا شاعرًا لشعره ، وهكذا تبدلت الأدوار فأخذ الناثر المكانة المرموقة التي كان يحتلها الشاعر بفعل التطور الحضاري الحاصل .

وقد بلغ كثير من الكتاب أعلى مناصب الدولة بفضل الكتابة مثل عمارة بن حمزة كاتب أبي جعفر المنصور ومولاه ، وكان تائهًا معجبًا كريمًا بليغًا فصيحًا ، أعور دميمًا ، وكان أبو جعفر المنصور والمهدي يقدمانه ، ويحتملان أخلاقه لفضله وبلاغته وكفايته ، ووجوب حقه ، وولي لهما الأعمال

(٥٥)البلاغة تطور وتاريخ : شوقي ضيف ، ص٢١ .

الكبار ، ومثل عمرو بن مسعدة الذي كان أحد كتاب المأمون ثم وزر له ، والفضل بن سهل الذي لقب بذي الرياستين ، لجمعه بين رياسة السيف ، ورياسة القلم ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، الكاتب البليغ الذي وزر لثلاثة حلفاء من بني العباس؛ المعتصم والواثق والمتوكل ، وغير هؤلاء كثيرون ممن قلدتهم الكتابة أعلى المناصب السياسية في الدولة [٥٦] ، ومن هنا نشأت تلك العلاقة الحميمية بين الكتابة والسياسة ، إذ كان هؤلاء جميعًا وغيرهم يسخرون أقلامهم في خدمة الدولة ، ويضعون ثمار قرائحهم في خدمة الخلفاء العباسيين [٥٧].

وقد تميز العصر العباسي بظهور أربع طرق كتابية ، لكل طريقة روادها وخصائصها ؛ الطريقة الأولى طريقة ابن المقفع التي هي امتداد لعبد الحميد الكاتب ، وأسلوب هذه الطريقة يقوم على الترسل الطبيعي ، وعماده الإيجاز والإرسال فلا التزام بسجع أو توازن أو ازدواج ، واعتماد اللفظ السهل ، والأسلوب السلس المتين الربط ، الخالي من المبالغات . [٥٨]

---

(٥٦)النثر الفني ونقده عند العرب من الشفاهية إلى الكتابية : مصطفى البشيرقط : ص١٤٣

(٥٧)الأدب في موكب الحضارة الإسلامية : مصطفى الشكعة ، ٢٣٨/٢ .

(٥٨)النثر الفني ونقده عند العرب من الشفاهية إلى الكتابية : ص١٤١

وعليها جاءت رسالة من أشهر رسائل ابن المقفع والتى عرفت باسم "رسالة الصحابة" التي كتبها للخليفة أبي جعفر المنصور في أصول الحكم، وأسباب بقائه وعلات ميله وانحرافه ، يقول(٥٩):

إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئا لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه، فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفي بهم في جميع ما يلتمس له أهل هذه الطبقة من الناس، رجونا أن يكون ذلك فيهم موجودا، وقد أزرى بأهل العراق تلك الطبقة أن ولاة العراق فيما مضى كانوا أشرار الولاة، وأن أعوانهم من أهل أمصارهم كذلك، فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول ، وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم ، ثم كانت هذه الدولة، فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب، مما دنا منهم أو وجوده بسبيل شيء من الأمر فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل الفريق حينما وقعوا من حماية خليفة أو ولاية عمل، أو موضع أمانة أو موطن جهاد، وكان من أهل الفضل أن يقصدوا حيث يلتمسون، فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا، وينتفع بهم، وإن كان صاحب السلطان ممن لا يعرف الناس قبل أن يليهم، ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم، ولم يستثبت في استقصائهم، زالت تلك الأمور عن مراكزها، ونزلت الرجال عن منازلها؛ لأن الناس لا يلقونه إلا

---

(٥٩) جزء من رسالة الصحابة لابن المقفع نقلا عن كتاب " المقال وتطوره في الأدب المعاصر" : السيد مرسي أبو ذكري ، ص١٤١ .

منصفين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعا، وأحلى ألسنة، وأرفق تلطفا للوزراء، وتمحلا لأن يثنى عليهم من وراء وراء، فإذا أثر الوالي أن يستخلص رجلا واحدا ممن ليس ذلك أهلا، دعا نفسه جميع ذلك الشرج ، وطمعوا فيه واجترءوا عليه، وتواردوه وترحموا على ما عنده، وإذا رأى ذلك أهل الفضل كفوا عنه، وباعدوا منه، وكرهوا أن يروا في غير موضعهم أو يزاحموا غير نظرائهم .

ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل الشام، فإنهم أشد الناس مؤنة، وأخوفهم عداوة وبائقة، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة، ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة، فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة، ممن يرجون عنده صلاحا، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء، فإن أولئك لا يلبثون أن يتفضلوا على أصحابهم في الرأي والهدى، ويدخلوا فيما جمل عليه من أمورهم، فقد رأينا أشباه أولئك من أهل العراق والذين استدخلهم أهل الشام، ولكن أخذ في أمر أهل الشام على القصاص: حرموا كما كانوا يحرمون الناس، وجعل فيئهم في غيرهم إليهم كما كان فيء غيرهم إليهم، ونحوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والموضع، ومنعت منهم المرافق، كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يصنعه أمراؤهم للعامة ... .

وأما الطريقة الثانية فهي طريقة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ التي تقوم على التحليل والتفريع والاستقصاء ، وقد أستمدت هذه الطريقة أسلوبها

من رافدين هما: أسلوب عبد الحميد القائم على الأطناب والازدواج ، وأسلوب سهل بن هارون القائم على التحليل والتعليل والجدل والحوار، وزاد الجاحظ على ذلك حسن التقسيم، وجمال الإيقاع، وكثرة الاستطراد، والتقصي، وتوليد المعاني. [٦٠]

من ذلك رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها رسالة الشكر قصد بها تقريض وزير المتوكل وشكر نعمه لديه مصدرا لها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده وهي[٦١] :

جعلت فداك أيدك الله وأكرمك وأعزك وأتم نعمته عليك وعندك ، ليس يكون الشكر أبقاك الله تاما ومن حد النقصان خارجا حتى يستصحب أربع خلال ويشتمل على أربع خصال :

أولها العلم بموقع النعمة من المنعم عليه وبقدر انتفاعه بما يصل إليه من ذلك من سد خلة أو مبلغ لذة وعلو في درجة مع المعرفة بمقدار احتمال المنعم للمشقة والذي حاول من المعاناة والكلفة في بذل جاه مصون أو مفارقة ثمين ، وكيف لا يكون كذلك وقد خول من نعمه بعض ما كان حبيسا على حوادث عدة فزاد في نعم غيره بما انتقص من نعم نفسه وولده فكلما تذكر الشاكر ما احتمل من مؤونة البذل سهل عليه احتمال ما نهض به من ثقل الشكر .

---

(٦٠)النثر الفني ونقده عند العرب من الشفاهية إلى الكتابية ، ص١٤٢ .

(٦١)صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٩٦/١٤.

والخصلة الثانية الحرية الباعثة على حب المكافأة واستحسان المجازاة والشكر من أكبر أبواب الأمانة وأبعده من أسباب الخيانة ولن يبلغ أحد في ذلك غاية المجد إلا بمعونة الطمع وإلا الحرب سجال بينهما والظفر مقسوم عليهما كذلك حكم الأشياء إذا تساوت في القوة وتقاربت في بلوغ المدة ، وقد زعم ناس أن الشاكر والمنعم لا يستويان كما أن البادئ بالظلم والمنتصر لا يعتدلان لأن الباديء أخذ ما ليس له والمنتصر لم يتجاوز حقه الذي هو له ولأن الباديء لم يكن مهيجا على الظلم بعلة جناها المنتصر والمنتصر مهيج على المكافأة بعلة جناها الباديء والمثور للطباع المغضب والمستخف المهيج أعذر من الساكن الوادع المطمئن فلذلك قالوا إن الباديء أظلم والمنتصر أعذر .

وزعموا أن المنعم هو الذي أودع صدر الشاكر المحبة بإنعامه عليه وهيجه بذلك على مكافأته لإحسانه إليه فقد صار المنعم شريك الشاكر في إحسانه وتفرد بفضل إنعامه دون مشاركة غيره والمنعم هو الذي دفع للشاكر أداة الشكر وأعاره آلة الوفاء فهو من ههنا أحق بالتقديم وأولى بالتفضيل ، هذا وقد قال الحكماء والأدباء والعلماء من تمام كرم المنعم التغافل عن حجته والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته لأن المحاجة مغالبة ولا تتم مودة إلا مع المسامحة .

ولذلك قال الربعي لناس من العرب يختصمون هل لكم في الحق أو خير منه قالوا قد عرفنا الحق فما الذي هو خير منه قال التغافل فإن الحق مر .

ألا ترى إلى بنت هرم بن سنان لما قالت لابنة زهير بن أبي سلمى في بعض المناحات أو في بعض المزاورات إنه ليعجبني ما أرى من حسن شارتكم ونقاء نفحتكم ، قالت ابنة زهير أما والله لئن قلت ما قلت فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم ومن بقايا ما أنعمتم .

قالت بنت هرم لا بل لكم الفضل وعلينا الشكر أعطيناكم ما يفنى وأعطيتمونا ما يبقي ، وقيل لعبد الله بن جعفر حين أجزل لنصيب الشاعر في الهبة وكثر له في العطية أتنيل هذا العبد الأسود كل هذا النيل وتحبوه بمثل هذا الحباء فقال عبد لله بن جعفر أما والله لئن كان أسود الجلد إنه لأبيض الشعر أعطيناه دراهم تفنى وثيابا تبلى ورواحل تنضى وأعطانا ثناء يبقى وحديثا يثنى ومكارم لاتبلى، فلهذه الخصال تكاملت خصال المجد فيهم فظهر عنوان كرم الخير عليهم فصاروا في زمانهم منارا ولمن بعدهم أعلاما ،وليس تتم معاني كرم المنعم ومعاني وفاء الشاكر حتى تتوافى أقوالهما وتتفق أهواؤهما على تدافع الحجة والإقرار بالمعجزة فيزداد بذلك المنعم فضلا والشاكر نبلا .

هذا جملة القول في خصلتين من الأربع التي قدمنا ذكرها وشهرنا أمرها.

والخصلة الثالثة الديانة بالشكر والإخلاص للمنعم في تصفية الود فإن الدين قائد المروءة كما أن المروءة خطام الحمية ، وهذه الخصال وإن تشعبت في بعض الوجوه وافترقت في بعض الأماكن فإنها ترجع إلى نصاب يجمعها وإلى إناء يحفظها منه نجمت وعنه انبثت وإليه رجعت ، ولاجتماع هذه الخصال على مخالفة الهوى ومجانبة الهويني وعلى اتهام دواعي الشهوة والامتناع من كلب الطبيعة وفق الأولون بينها في جملة الاسم وقارنوا بينها في جمهرة الحكم ، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعتبر عزمه بحميته وحزمه بمتاع بيته ومدار جميع الأحوال المحمودة على الصبر ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل عاقبة الصبر ،وقالوا لما صار ثقل الشكر لا يحتمل إلا بالصبر صار الشكر من نتاج الصبر .

وكما أنه لا بد للحلم مع كرم الحلم من الصبر فكذلك لابد للشكر مع كرم الشكر من الصبر ، فالصبر يجري مع جميع الأفعال المحمودة كما يجري الهوى مع جميع الأفعال المذمومة ، ولذلك قال رسول الله خلق الله عز و جل النار وحفها بالشهوات وخلق الجنة وحفها بالمكاره .

والخصلة الرابعة وصف ذلك الإحسان باللسان البين وتخيره بالبيان النير وباللفظ العذب الشهي والمعنى الشريف البهي فإن الكلام إذا كان حسنا جعلته الحكماء أدبا ووجدت الرواة إلى نشره سببا حتى يصير حديثا مأثورا ومجدا مذكورا وداخلا في أسمار الملوك وسوقا من أسواق المتأدبين ووصلة في

المجالس وزيادة في العقل وشحذا للسان وترهيفا للقلب وتلطيفا للفكر وعمارة للصدر وسلما إلى العظماء وسببا إلى الجلة الكبراء .

وإذا لم يكن اللفظ رائعا والمعنى بارعا وبالنوادر موشحا وبالملح مجلوا لم تصغ له الأسماع ولم تنشرح له الصدور ولم تحفظه النفوس ولم تنطق به الأفواه ولم يخلد في الكتب ولم يقيد بالدرس ولم يجذل به قائل ولم يلتذ به سامع .ومتى لم يكن كذلك كان كلاما ككلام اللغو ومعاني السهو وكالهجر الذي لا يفهم والمستغلق الذي لا يعلم ، وليس أبقاك الله شيء أحوج إلى الحذق ولا أفقر إلى الرفق من الشكر النافع والمديح الناجع الذي يبقى بقاء الوشم ويلوح كما يلوح النجم ، كما أنه لا شيء أحوج إلى وسع الطاقة وإلى الفضل في القوة وإلى البسطة في العلم وإلى تمام العزم من الصبر ،وعلى أن الشكر في طبقات متفاوتة ومنازل متباينة وإن جمعها اسم فليس يجمعها حكم فربما كان كلاما تجيش به الصدور وتمجه الأفواه وتجدف به الألسنة ويستعمل فيه الرأي المقتضب والخاطر المحتار والكلام المرتجل فيرمى به على عواهنه وتبنى مصادره على غير موارده لا يتعذر فيه الشاكرون لانتفاع المنعمين كما تعذر المنعمون لانتفاع الشاكرين ،وليست غاية القائل إلا أن يعد بليغا مفوها أو يستزيد به إلى نعمه السالفة نعما آنفة أوليس إلا ليغتر كريما أو يختدع غنيا لا يتفقد ساعات القول ولا يتعرف أقدار المستمعين وليس غايته إلا الكسب والتعرض والانتفاع والترنح وعلى هذا يدور شكر المستأكلين وإحماد المتكسبين ، وهذا الباب وإن جعلته العوام شكرا فهو بغير الشكر أشبه وبذلك

أولى وربما كان شكره عن تأنق وتذكير وعن تخير وتخيير وعن تفقد للحالات وتحصيل للأمور في المقامات التي تحيط بمهجته وبحضرة عدو لا يزال مترصدا لنعمته فربما التمس الزيادة في غبطه وربما التمس شفاء دائه وإصلاح قلبه ونقض المبرم من معاقد حقده على قدر الرد وعلى قدر تصرف الحالات في المصلحة لأن الشاكر كالرائد لأهله وكزعيم رهطه والمشار إليه عند مشورته فربما اختار أن يكون شكره شعرا لأن ذلك أشهر وربما اختار أن يكون كلاما منثورا لأن ذلك أنبل وربما أظهر اليسر وانتحل الثروة وجعل من الدليل على ذلك كثرة النفقة وحسن الشارة ويرى أن ذلك أصدق المدحين وأنبل الشكرين ويجعل قائده إلى هذا المذهب وسابقه إلى هذا التدبير قول نصيب :

(فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب)

ومما يدخل في هذا الباب وليس به قول العنزي :

(يابن العلاء ويابن القرم مرداس ... إني لأطريك في أهلي وجلاسي)

(حتى إذا قيل ما أعطاك من صفد .. طأطأت من سوء حال عندها راسي)

(أثني عليك ولي حال تكذبني ... بما أقول فأستحيي من الناس)

وبين هذين الشكرين طبقات معروفة ومنازل معلومة وموضع الشكر من قلب السامع في القبول والاستنامة على قدر حسن النية والذي يعرف به الشاكر من صدق اللهجة ومن قلة السرف واعتدال المذاهب والاقتصاد في القول ،وهذا باب سوى الباب الآخر من حسن الوصف وجودة الرصف ولذلك لما أحسن بعض الواعظين في الموعظة وأبلغ في الاعتبار وفي ترقيق القلوب

ولما لم ير أحدا يخشع ولا عينا تدمع قال يا هؤلاء إما أن يكون بي شر أو يكون بكم شر ، وقيل لجلساء الفضل الرقاشي وعبد الصمد بن الفضل الرقاشي ما بال دموعكم عند الفضل أغزر وعند عبد الصمد أنزر وكلام عبد الصمد أغزر وكلام الفضل أنزر قالوا لأن قلب الفضل أرق فصارت قلوبنا أرق والقلوب تتجارى ،وقالوا طوبى للممدوح إذا كان للمدح مستحقا وللداعي إذا كان للاستجابة أهلا وللمنعم إذا حظي بالشكر وللشاكر إذا حظي بالقبول ،إني لست أحتشم من مدحك لأني لست أتزيد في وصفك ولست أمدحك من جهة معروفك عندي ولا أصفك بتقديم إحسانك إلي حتى أقدم الشكر الذي هو أولى بالتقديم وأفضل الصنف الذي هو أحق بالتفضيل ،وفي الخبر المستفيض والحديث المأثور ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وقليل باق خير من كثير فان .

والطريقة الثالثة هي طريقة أبي الفضل بن العميد ، وهي طريقة تقوم على الوشي والزخرفة والتنميق والموسيقى الناجمة عن استعمال الجمل القصيرة المسجوعة، مع تنميق ذلك بأنواع من المحسنات البديعية كالطباق والمقابلة والجناس، وضروب من أساليب البيان كالاستعارة والتشبيه والكناية ، مع الاستشهاد بالنظم، مما يجعل طريقته هي طريقة الشعر المنثور، لأنها شعر لا ينقصه سوى الوزن . [٦٢]

(٦٢) النثر الفني في القرن الرابع الهجري : زكي مبارك ، ٢ / ٢٤٨ وما بعدها .

ومنها رسالة لأبي الفضل بن العميد ، وجاء فيها [٦٣]:

كتابي – جعلني الله فداك – وأنا في كد وتعب، ومنذ فارقت شعبان وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم. ومرتهن بتضاعف حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج ، وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرباء عن التحنق، ويزويه عن التبصر، يقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق:

ويترك الجاب في شغلٍ عن الحقب ... ويقدح النار بين الجلد والعصب

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها:

سجوداً لدى الأرطى كأن رؤوسها ... علاها صداعٌ أو فواقٌ يصورها

وكما قال الفرزدق:

ليومٍ أتت دون الظلال شموسه ... تظل المها صوراً جماجمها تغلي

وأحمد الله على كل حال، وأسجله أن يعرفني فضل بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته، وأرغب إليه من أن يقرب على القمر دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته. ينقض مسافة فلكه ودائرته، ويزيل بركه الطول من ساعاته، ويرد علي غرة شوال فهي أسر الغرر عندي وأقرها لعيني، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن

(٦٣) يتيمة الدهر ، ٣ / ١٥٣-١٥٤.

ذريح، وأبلى من أسير الهجر، ويسلط عليه الحور بعد الكور، ويرسل على رقاقته التي يغشى العيون ضوءها. ويحط من الأجسام نوؤها، كلفا يعمرها، وكسوفا يسترها، وبرينيه مغمور النور، مقمور الظهور، قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة. وينقص من أطرافه كما تنقص النيرات من طرف الزند، ويبعث عليه الأرضة، ويهدي إليه السوس، ويغري به الدود، ويبليه بالفار ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفه بالذر، ويجعله من نجوم الرجم، ويرمي به مسترق السمع. ويخلصنا من معاودته، ويريحنا من دورته، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه، ويفعل به فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالألوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتتح بضوئه وتهتك بطلوعه ويرحم الله عبداً قال آمينا وأستغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهه، وأستعفيه من توفيقي لما يذمه، وأسأله صفحاً يفيضه، وعفواً يسيغه، وحالي بعد ما شكوته صالحة، وعلى ما تحب وتهوى جارية، ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر.

وله من رسالة طويلة ، جواب لأبى شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه صدر كتاب ألّفه أبو الحسن الصوفى فى نوع من علوم الهيئة[٦٤]:

أنا أقدم الإجابة بحمد الله تعالى جَدُّه، على ما وهب لنا معاشرَ عبيدِه وخدمه خاصة، بل لرعاياه عامّة، بل لأهل الأرض كافة، من عظيم النعمة بمكانِه، وجسيم الموهبة بإنفاق أعمارِنا في زمانه، حتى شاركْنَاهُ في أَسباب السعادة التي لم تَزَلْ مَذْخُورة عليه، حتى صارت إليه، وساهمناه في مواد

(٦٤) زهر الآداب وثمر الألباب ، ص٦١٩.

الفضيلةِ التي لم تَزَلْ محفوظةً له حتى اتَصَلَت به؛ فإنّ المرءَ أَشْبَه شيءٍ بزمانه، وصفات كل زمانٍ منتَسخة من سجايا سُلْطَانه؛ فإن فَضَلَ شاعَ الفضلُ في الزمان وأهله، وتحلَى الدَهرُ بأفضلِ حِلْيته، وتجلى للعيونِ والقلوبِ بأحسن زينته، وكسا بَنِيه والناشئين فيه بشرفِ جَوْهرَهِ، وأَورثهم نَيْلَ فضله، وعزَ العِلم وأهله، وعرف لمقتبسه قَدْرَه، وتوجَّهت الأذهانُ نحوه، وتعلَقت الخواطرُ به، وصرفت الفكر فيه، ونشدت ضَوَالّه، ونظم أَشْتَاته، وجمعت أَفْرَادهُ، ووثِقَتْ نفوسُ الساعين في استفادته بحُسْنِ عائدته، فحرصت عليه، وصرفَتْ نظرَها إليه، وأيقنت في بضاعتها بالنَفاق، وفي تجارتها بالإِرْفَاق، فصار ذلك إلى نَمَاء العلوم وزيادتها داعية، ولتكثير قليلها وإيضاح مجهولها سبباً وعلَّةً، وإلى انخراط جواهرها المتفرقة في سلوك التصنيف سبيلاً، وإلى تقييد شواردِها بعُقُل التأليف طريقاً. وإن رَذل السلطان اتُّبِعَت الرذيلةُ اتباعاً، وذَهبتِ الفضائلُ ضَيَاعاً، وبطلت الأقدارُ والقيم، وسلِبَت الأخطار والهِمم، وزال العلم والتعلم، ودَرَس الفهْمُ والتفهم، وضرَبَ الجهلُ بِجِرَانِه، ووطئ بمنسمه، واستَعْلَى الخمولُ على النباهة، واستولى الباطلُ على الحقّ، وصارَ الأدبُ وبالاً على صاحبه، والعلمُ نكَالاً على حامله. وبحسب عظيم المحنة بمن هذه صِفَتُه، والبلوى معَ مَنْ هذه صورتُه، تَعْظُمُ النعمة بمُلْكِ سلطانٍ عالمٍ، كالأمير الجليل عضد الدولة، أَطال اللهُ تعالى بقاءه ، وأدام قُدْرَته ، الذي أَحله الله عزَ وجل من الفضائل بملتقى طُرُقها ومجتَمَع فرقها، فهي نَوَادُ ممن لاقت حتى تَصيرَ إليه، وشوارِدُ نوازِعُ حيث حلَت حتى تقعَ عليه، تتلفت تلفتَ الرامِقِ، وتتشوَّفُ إليه

تشوفَ الصب العاشقِ، قد ملكها أنَّى توجهت وحشة المضاع وحَيرة المرتاع: الطويل:

فإن تَغشَ قوماً غيره أَوْ تَزُرْهُمُ . فكالوحش يُدْنِيها من الأَنَسِ المَحلُ

حتى إذا قابلته أسرعت إليه إسراعَ السيل ينصَب في الحدور، والطير يَنْقَضُ إلى الوكور. وقال أبو الطيب المتنبي: المنسرح :

أَحَقٌّ عافٍ بدَمْعكَ الهِمَمُ ... أَحْدَثُ شيءٍ عَهْداً بها القدَمُ

وإنما الناسُ بالملوكِ، وَما ... تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ

لا أدبٌ عندهُمْ ولا حَسَبٌ ... ولا عُهُودٌ لَهُم ولا ذِمَم

بكل أرضٍ وطِئْتُها أُمَمٌ ... تُرْعَى بعَبْدٍ كأنها غَنَمُ

يستَخْشِنُ الخَزَ حين يَلْمُسُهُ ... وكان يُبْرَى بظُفْرِهِ القَلَمُ

وقال الزبير بن بكار: قَدِم ابنُ ميادة، واسمه الرَّمَّاحُ بن أبرد، زائراً لعبد الواحد بن سليمان، وهو أميرُ المدينة، فكان عنده ليلةً في سُماره؛ فقال عبدُ الواحد لأصحابه: إني لأهم أن أتزوج فابْغُوني أيماً، قال ابن ميادة: أنا – أصلحك الله – أدلُّك، قال: على مَن، يا أبا بشر، نَميل؟ قال: قدمت عليك أيها الأمير، فلما قدمت ألفيتُ المسجد وإذا أشبه شيءٍ به وبمن فيه الجنة ومَنْ فيها، فبينا أنا أمشي إذ قادتني رائحةُ رجلٍ عطِرٍ حتى وقفت عليه، فلما وقع بصري عليه استَلهَى حُسْنه ناظري، فما أقلعت ناظري حتى تكلَم فما زال يتكلَم كأنما يَنثر دُرًا، ويتلو زَبوراً، ويدرس إنجيلاً، ويقرأ فُرْقاناً، حتى سكت، فلولا معرفتي بالأمير ما شككت أنه هو، ثم خرج من مُصَلاَّه إلى داره، فسألت عنه،

فأُخْبِرْتُ أنه من الحسن بمكانةٍ، وأنه للخليفتين، وأنه قد نالَتْه ولادَةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لها ساطع من غُرَّتِه؛ فإن اجتمعتَ أنْتَ وهو على ولدٍ ساد العبادَ، وجابَ ذِكْرُه البلاد.

فلما قضى ابنُ ميادة كلامه قال عبد الواحد ومَن حضر: ذلك محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، رضي الله تعالى عنه، لفاطمة بنت الحسين بن علي، رضي الله عنهم.

وقال ابن ميادة: الطويل:

هم سيرة لم يُعْطِها اللهُ غيرَهم ... وكل قضاء اللهِ فهو مُقَسَمُ

هذا في تقابل نسبه، وكمال منصبه، كقول عُوَيْفِ القوافي في طلحة بن عبد الله الزهري: الطويل:

يُصَمُ رِجالٌ حين يُدعَون للندى ... ويُدعى ابن عوفٍ للندى فيجيبُ

وذاك امرؤ من أي عِطفَيه يَلتفِتْ . إلى المجد يحْوي المجدَ وَهو قَرِيبُ

وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذي يقول فيه القطامي: البسيط:

أقولَ للحَرْفِ لَمَّا أنْ شكَتْ أصلاً ... طولَ السِّفار وأفْنَى نِيَّها الرّحلُ

إن ترجعي من أبي عثمان منجِحَةً.. فقد يَهُونُ على المستنجح العملُ

أهل المدينة لا يحزنك شأنهمُ ..... إذا تخطأ عَبْدَ الواحد الأجَل

ومن قول القطامي: إن ترجعي من أبي عثمان منجحة أخذ الآخر قوله: الطويل:

إذا ما تَعَنَّى المرءُ في إثر حاجةٍ ... فأنجح لم يثقلْ عليه عناؤهُ

وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان،قال الكلبي: هو عبد الواحد ابن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، والأول قول ابن السكيت.والقصيدة التي منها هذه الأبيات من أَجْوَدِ قوله، وفيها يقول ممّا يتمثّل به: البسيط:

والعيشُ لا عَيْشَ إلا ما تَقَرُّ به ... عَيْنٌ ولا حال إلا سوف يَنتقلُ

والناسُ مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون لهُ ... ما يَشْتَهِي ولأُمِّ المخطئ الهَبَلُ

قد يُدْرِكُ المتأني بعضَ حاجتِه ... وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ

قوله: والناس مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون له مأخوذٌ من قول المرقش : الطويل:

ومَنْ يَلْقَ خيراً يحمدُ الناسُ أمْرَهُ ... ومَنْ يَغْوَ لا يعدَمْ على الغيِّ لائما

وقال عمرو بن سعيد للأخطل: أيسرُكَ أن لك بشعرك شعراً؟ قال: لا، ما يسرُني أن لي بقولي مقوَلاً من مَقَاوِيل العرب، غير أنّ رجلاً من قومي قال أبياتاً حسَدْتُه عليها، وايم الله، إنه لمُغْدِف القناع، ضيِّق الذراع، قليل السماع، قال: ومَنْ هُو؟ قال: القُطامي، قال: وما هذه الأبيات؟ فأنشد له يَصِفُ إبلاً من هذه القصيدة: البسيط :

يمشين رَهْواً فلا الأعْجَازُ خاذِلة .. ولا الصدورُ عَلَى الأَعْجَازِ تتكِلُ

فهن معترِضات وَالْحَصا رَمِضٌ ... وَالرّيحُ سَاكِنَة والظلُّ معتدلُ

يتبعن سَامِيةَ العَيْنَيْنِ تحسبها ... مجنُونة أو تَرَى ما لا تَرَى الإبلُ

ثم جاءت بعد ذلك الطريقة الرابعة وهي الطريقة الفاضلية نسبة إلى مؤسسها القاضي الفاضل التي أغرقت في استعمال المحسنات البديعة

والألاعيب اللغوية الفارغة إلى درجة الركاكة والإسفاف ، مما جعل الطريقة الفاضلية تعد خير ممهد لعصر الانحطاط في الكتابة الفنية. [٦٥]

من ذلك رسالة للقاضي الفاضل يصف فيها قلعة بحمص ، يقول فيها [٦٦]:

(والشيخ الفقيه قد شهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب ، وعُقاباً في عُقلب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قُلامه ، عاقدة حَبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بفرعه ، عاهدة عِصمةً ، صالحها الزمن على ألا يروعها بخلعه ، فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب ، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب ، فلم يكن غير ثالثة من الحد إلا وقد أثرت فيها حُدرياً بضربها ، ولم تصل السابع إلا والحجران تنذر بنقبها ، واتسع الخرق على الراقع وسقط سعدها عن الطالع ، إلى موحد هو إليها الطالع ، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً ، فهنالك بدت نقوب يرى قائم دونها ما وراءها ، وخشيت فيها النار ، فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها) .

وقد تنوعت الرسائل فى العصر العباسي ، فأطلق على الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل اسم الرسائل الديوانية نسبة إليه. وموضوعات هذه الرسائل متنوعة، فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد،

---

(٦٥) كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي بن علي التهانوي ، ص ٥٨٤.

(٦٦) الأدب في العصر الأيوبي: ص١٩٨ .

وتولية القضاة، والولاة، وما يتصل بأمور الرعية. كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك. وفي مقابل الرسائل الديوانية، يوجد نوع آخر من الرسائل يعرف بالرسائل الإخوانية، وهي التي يكتبها الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة ، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة ، ومن الرسائل الإخوانية رسالة أبى الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

وصل كتابُك فصادفني قريبَ عهد بانطلاق، من عنَتِ الفراق، وأوقفني مستريحَ الأعضاء والجوانح من حرّ الاشتياق، فإنّ الدهرَ جرى على حكمِه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رَسْمه المعروف في تبديل الأبدال، وأعتقني من مخالَّتك عِتقاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجِبُ معها دَرَكاً ولا استثناء، ونزع من عُنقي رِبْقَة الذلّ في إخائك بِيَدَيْ جفائك، ورش على ما كان يحتدم في ضميري من نيرانِ الشوق ماء السلوّ، وشن على ما كان يلتهبُ في صَدْري من الوَجْد ماءَ اليأس، ومسح أعشار قلبي فلأَمَ فُطُورَها بجميل الصبر، وشعبَ أفلاذَ كبدي فلاحم صدوعَها بحُسْن العزاءِ، وتغلْغَل في مسالِك أنفاسي فعوض نفسي من النزاع إليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشفَ عن عيني ضَبَابات ما ألقاهُ الهوَى على بصري، ورفِع عنها غيابات ما سَدَلَه الشكّ دُون نظري، حتى حدَر النقاب عن صفحاتِ شِيَمك، وسفر عن وجوه خليقتِك؛ فلم أَجدْ إلا منكراً، ولم ألق إلا

مستكبراً، فوليتُ منها فِراراً، ومُلِئتُ رُعْباً، فاذهب فقد ألقيت حَبْلَكَ على غاربك، ورددتُ إليك ذميماً عهدك.

ورسالة سهل بن هارون الى محمد بن زياد والى بني عمه من آل زياد حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب ، فكتب إليهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخير، وجعلكم من أهله! قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال، أقلهم حياء من الفرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عياباً، فإنه يعيب بفضل ما فيه من العيب. وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب. وقبيح أن تنهى عن مرشد، أو تغري بمشفق.

وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم ، ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم. فما أحقكم في تقديم حرمتنا بكم، أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، وتنبيهنا على ذكر العيوب براً وفضلاً، لرأينا أن في أنفسنا عن ذلك شغلاً. وإن من أعظم الشقوة، وأبعد من السعادة، أن لا يزال يتذكر زلل المعلمين، ويتناسى سوء استماع المتعلمين، ويستعظم غلط العاذلين، ولا يحفل بتعمد المعذولين.

عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميراً، كما أجدته فطيراً، ليكون أطيب لطعمه، وأزيد في ريعه. وقد قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه ورحمه – لأهله: أملكوا العجين، فإنه أريع الطحنتين، وعبتم على قولي: من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي: فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية، وأشف من الكفاية. فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلاً على الماء، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله، ورغبت عن التهاون به في ابتدائه، لخرج آخره على كفاية أوله، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر. فعبتموني بذلك، وشنعتموه بجهدكم، وقبحتموه. وقد قال الحسن عند ذكر السرف: إنه ليكون في الماعونين الماء والكلإ. فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلإ.

وهناك رسائل أخرى ليست ديوانية ولا إخوانية وإنما هي رسائل وعْظية، ونعني بها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك ، وبالإضافة إلى هذه الأنواع هناك نوع آخر من الرسائل خُصص للحديث عن بعض الموضوعات الأدبية أو العلمية أو الدينية أو التاريخية، وهذا النوع من الرسائل يدخل في باب التأليف ولايدخل في باب الترسل، ومن أمثلته بعض رسائل أبي العلاء المعرِّي، مثل رسالة الغفران ورسالة الصاهل

والشاحج ورسالة الملائكة. وقد عُرف هذا اللون بالرسائل الأدبية، وكان الجاحظ أمير بيانه غير منَازع. وتُعد رسالته التربيع والتدوير أشهر الرسائل الأدبية إذ فتحت الباب لمن جاء بعده من الكتاب للإبداع في هذا اللون من الترسل في المشرق والأندلس على السّواء ، ومما جاء فى رسالة الصاهل والشاحج لأبى العلاء :

(أسلم على الحضرة العالية تسليم العاجز المقصر، كما ينظر الهادي المدلج إلى فرقد الليل، واليماني المشيم إلى سهيل. وأصحاب الراح يتعوذون من مغن إذا ارتجل شتم، وإذا سكت صين وأكرم. وأنا أمت بحق التخفيف.

قال بعض الرعاة :

"لا تذموا القتادة فإن لها علينا حقاً".... قيل: وما ذاك؟ قال: "أنها لم تنبت بأرضنا."

ولو كنت بالغاً في الأدب أطورى، لكنت في تلك الحضرة كالقطرة تحت الصبير، والحصاة إلى جانب "ثبير". فما بالي وأنا مثقل استعان بذقن، وطفل بهش إلى يفن، وذليل عاذ بقرملة، وعبد هتف بأمة؟ والربيع أغفلت الكمأة؛ وعند المنهل نسيت المزادة. كل امري يغدو بما استعد، وقيل الرماء تملأ الكنائن؛ فماذا يصنع من لا كنانة له ولا عدة عنده؟ قد أضاء الصبح لذي عينين، فهل يضيء لمن لا عينين له؟ ولست ممن يعتب عليه، إنما يعاتب الأديم ذو البشرة، ولا قوة عند العشرة. وفي شهري ناجر تكفأ الظعن إلى قراس

وإذا طلع قلب العقرب حبت إلى القوم تهامة. والكسير قد يعلو الرابية، والعاشية تهيج الآبية، ولو ترك القطا ليلاً لنام.

يا قطوف، سبقت الوساع فالحقي، إنها من طير الله فانطقي.هيهات! ما بالوادي من محتطب، حبذا المنتعلون قياماً. ومن العناء رياضة الهرم ريا عبير وبهار، يغني المهرية عن المهار. قد عرض نشر عنبر، منع نجيباً من معبر. وقد علم الله، جل اسمه، أني أستنزر ل "السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء" خلد الله أيامه- كل كثير، فلو حملت إلى حضرته الذهب لظننته صفراً، أو الإيمان لحسبته نفاقاً وكفراً؛ ولو جعلت شجر الكافور والألوة قوتاً للنار أوقدتها مهنته في الصنبر تدفع بها قرة ذوات وبر، أوهمتني المحبة أني قد ونيت؛ ولو أهديت ظباء المسك إلى الصوائد التي بين يديه، خيلت لي عظمته أني جنيت. لا جعلني الله ممن يعد الصربة من أفضل جنى، ويغدو بالخرز ليضحي به في "منى". والمؤبرة خير من الوبرة، وإن كانت ليست بالخيرة. وكل الصيد في جوف الفرا، ولكن من يقدر عليه؟ وهل يطرق أهله بالجأب المسحور من يعجز عن مقطعات السحور؟

وأنا كصاحب المثل، قال: أين أغدو إذا صبحتموني؟ فقالوا: أعن صبوح ترقق؟ وأذكر حاجتي قبل أن أبرم فأجرم، لأن من أتى بالإبرام وقع في عظيم الإجرام: لي- أطال الله بقاء السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء- أولاد أخ قد أوذموا على أنفسهم من خدمتي ما ليس بلازم؛ وأصغرهم

سناً طفل صغير قد وكل بي في الصبارة، كلما أحس بحمام اليانوسة لدى أحياها بالحمم؛ إلى غير ذلك من المآرب، لا يمكن قضاؤها بنفسي.

ولهم أوالب في مدينة "حماة" ولتلك الحوبات أشقاص في أملاك يأمل هؤلاء الحسكل– والأمل ساحر ساخر، وربما وجد هو الصادق. وله نوعان كأنهما برقان: هذا خالب، وهذا للمطر جالب– أن يصيبهم نفع من تلك السهمة. ورفع رافع إلى الحضرة العالية، أن حقاً يجب للخزانة المعمورة على أرض أولئك الدرد النهابل، وسألوني، والمسألة حرمة، أن أسأل "السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء" في ذلك .فاستحييت أن أكلفهم في اليوم القصير لماسات وروب، ويسألوني شهلاء هي في العمر كالبدر في الهالة والقراب في الخلة والمتقارب في الدائرة، فأردهم عنها مكبوتين، وإنما هي الزهرة في الأفق والوضيعة من الشقر.

وكان يجب علي، من فرط الإجلال، أن أقول لهم ما قال "زرارة" لولد "سويد بن ربيعة" وقد تعلقوا به عند ""عمرو بن هند": "يا بعضي دع بعضاً." ولكن حملني أطيط الحاسة وعلمي بكرم الشيمة، على النهضة بغير جناح، وركوب الصعبة بلا أحلاس .وأنا أجله لفهمه وفطنته، مثل ما أجله لعزه وسلطانه، ولو جاء رجل في طمرى برس أو سمل فراري، أو عارياً لا يصل إلى الطرائد ولا الهيب، يتلهف على منقل أو سميط تحذى له من أم الهنيبر أو غيرها من الهنبر، ويعتمد على خوارة كأنها منسأة الميت، ولديه الجن العاملة،

وفيه من الأدب والعلم بعض ما في "السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء "خلد الله أيامه، خنعت له بالعظمة والترفيل.

وقد أشرت عليهم بترك تنجزهم الصفح عن ذلك، وقلت: الصبر على القناعة أقبل من سوء الصناعة، والكريم يجب أن يستحيا منه، والجمرة إلى الجمرة نار ينتفع بها المقرور، والنغبة مع أختها ري الظمآن ، فأبوا إلا غير ذلك وقالوا: إنا لا نحمل أوقاً كان موضوعاً فيما سلف. وهذه الأيام المشرقة لو رأتها "دوس "لما قال القائل منهم: ذهب الخير مع عمرو بن حممة.

فجشموني كلاماً في ذلك، فقبح الله معزى خيرها خطة، وشجراً أطوله التربة، ومؤرثات للضيفان أكثرها ضراماً ما يوقده أبو الحباحب.

فما برحوا، والكاذب خائب، يرمون بالسروة ويفتلون في الذروة، ويقردون العود النافر، ويزجون ثقالاً قيد فما أيد، ويحدون بأم الربيق على أريق. حتى همت النعامة بكروع، وعزم الضب على الشروع. وأني للوليدة بأزمان القردة؟ ومن الفند أن يسأل نعمان في بريرة، ويلتمس من رياض الحزن إنبات الزهرة. وإذا عذلتهم في ذلك، فلهم أن يقولوا: لأفقر منا يهدي غمام أرضنا، وسائمتنا أحق بما نبت في عرضنا.

وقد وصلوا بهذه الرسالة رقعة يرجون بها من اليد العالية توقيعاً مؤبداً لا يكون بعده القول مردداً، بل يحسم بإيجاب طمع كل ناظر وجاب. فإن جاءت بالنجح فلله الحمد ثم للسيد "عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء".

إذا كرم الزندان لم تتعب في القدح اليدان؛ ومن وقف على العناقة أروى الناقة، ومن نزل "تبالة" نفض البالة.

وإن خابت، فهي حقيقة بالخيبة. المطية رجاحة، والأذن فيها جاحة؛ وإن ثعالة لا تبنى العالة .ولو أصغى المسمع إلى ما يأمر به حسن الأدب، لم أحفل بحظيات لقمان، ممن صدق أو مان، ولا احتملت أسهم القارة خيفة من الحقارة. لأن المسألة في التافه أنبأت عن اللب النافه.

وإنما جعلت هذا المقدار تافهاً، لشرف مقدار المسئول. فأما أنا فمذهبي أن الدرهم يقع عليه اسم المال الكثير. ولو كان في الوجذ فراشة وفي المحل الممحول غذيمة، لكفيت الغافلة من رماها، والجازئة من اسّماها.

ولهؤلاء القوم أريضة ليست بالأريضة، هي من قلة العمل كالمريضة. غراسها ليس بعميم، وثمرها بين الثمر كبنى يربوع في بنى تميم؛ إلا أن أولئك حمدوا في الغارة، وذم هذا حين يغير. وحين يختبز لا يطيب منه الخبز. وما سقى منها بالأبق والأديم، فهو العناء المنصب في الحادث وفي القديم؛ يشتكيه المالك ومن يعمل فيه، ويجعل حليماً مثل سفيه.

كأن ماءه المنتزع كافر محتقر، غفر له بعد ما مسته سقر، فقد عولي به من أسفل سافلين إلى أعلى عليين. وربما غار ونكز، فلم يفل الملطس في إخراجه حتى يرجع إلى قرواه. تود بهيمة أصعدته، لو كانت في سواد ذي القرنين، تحمل أوتاد خيام أو غيرها من أثقال اللئام، وتسافر من المشرق إلى المغرب، وتراح من هذا البؤس الدرب. إذ كان سفرها لا ينفد وعذابها يجدد.

ولا يقنع لها القدر بالأين حتى يأمر بتخمير العين. فالخطوة من العبء قصيرة، والعين عمياء بصيرة. وهي في أوقات النجر يكف بصرها عند الفجر فتنظر إلى القمر دون الشمس، ويومها في الشقوة نظير الأمس. وربما تكون ليست بالزعلة فيستأجر لها غلام عارم لا كريم هو ولا مكارم. فيسوقها بالعجراء سياقة عنيف ويمزق جلدها تمزيق الخنيف. فهي تروى الناضر ولا تلقاه، وتسمع قسيب الأزرق ولا تسقاه. وتمر عليها الدجالة من الرفاق، فإذا سمعت صوت الحافر هاج ذلك عليها طرباً وحزناً، وذمت إلى الله القادر معاشاً لزناً.

وترد جباها الواردة، فإذا حمل أمرها على ما ظهر من اللفظ العربي في الكتاب الكريم من قوله عزت كلمته: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ."وعلى ما جاء في الحكاية عن النملة: "يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ."وعن الهدهد في قوله "تعالى": "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم."

فجائز أن تضمر هذه البهيمة أو تقول باللسان ما لا يفهمه كل إنسان، من كلام معناه: رب صلف تحت الراعد، وساع دأب لقاعد . تقرى البائسة وترد الرائسة.

التوقيعات :

هي ما يُوقِّع به الخليفة أو الوزير أو الوالي على ما يُرْفَع إليه من شكوى أو تظلُّم ، يقول ابن خلدون : ومن خُطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه. فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه " [٦٧] .

وقد تطوَّر مفهوم التوقيعات في العصر العباسي، واكتسب معنى أدبيًا، فأصبحت تطلقُ على تلك الأقوال البليغة الموجزة المعبرة التي يكتبها المسؤول في الدولة، أو يأمر بكتابتها على ما يرفع إليه من قضايا أو شكايات، متضمنة ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو كل قضية أو مشكلة، وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في الوقت الحاضر [٦٨] ، وقد كثرت التوقعات في الدولة العباسية، ونُسبت إلى كثير من الخلفاء كالسفَّاح والمنصور والمهدي والرشيد، والوزراء كجعفر بن يحيى البرمكي الذي يُعَدُّ من أبرع مَنْ أُثِرت عنه توقيعات، وكثيرًا ما يكون التوقيع آية من القرآن الكريم، أو حديثًا نبويًّا، أو حكمة من الحِكم، أو بيتًا من الشعر.

ومما أثر من توقيعات بليغة :

---

(٦٧)المقدمة ، ص٦٨١.

(٦٨) فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي: حمد بن ناصر الدخيل.

- توقيع الفضل بن سهل على قصة مظلوم: " كفى بالله للمظلوم ناصراً"
- وتوقيع هارون الرشيد إلى عامله في خراسان: "داوِ جُرْحَكَ لا يتَّسع "
- ووقَّع جعفر البرمكي في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله :

" لقد كَثُرَ شاكوك، وقل شاكروك، فإمَّا اعتدلْتَ وإمَّا اعتزلْتَ "

- وَقع الخليفة المأمون إِلَى الْوَاقِدِيّ، وَقد كتب يذكر دينا عَلَيْهِ ويستمنح: "خصلتان: سخاء وحياء؛ أما السخاء فَهُوَ الَّذِي أطلق يدك فِيمَا ملكت، وَأما الْحيَاء فَهُوَ الَّذِي حملك على أَن ذكرت بعض دينك دون كُله، وَقد أمرت لَك بِضعْف مَا كتبت، فزد فِي بسط يدك، فَإِن خَزَائِن الله مَفْتُوحَة وَيَده بِالْخَيرِ مبسوطة" [٦٩].

وقد بالغ بعض الكتاب والأدباء في وجازة التوقيع؛ حتى إن بعضهم اقتصر في بعض توقيعاته على حرف ، أو نقطة. ذُكرَ أن الصاحب بن عباد الوزير الأديب المؤلف وقّع في رقعة بألف، وفي أخرى بنقطة، وذلك أنه التمس منه بعض السائلين شيئًا من مال، ثم كتب في آخر رقعته: "فإن رأى مولانا أن يَفْعَلَ ذلك فَعَل"، فوقع الصاحبُ قبل (فَعَل) ألفًا، فصار (أفعلُ). وأما النقطة فإنه وضعها في رقعة على لفظة (يفعل)، فنقط الياء من فوقها فصارت نون[٧٠] .

---

(٦٩) الثعالبي: خاص الخاص، ١/ ٨٩- ٩٠ .

(٧٠)تحفة الوزراء : الثعالبي ، ص ١٤٤.

الوصـايـــا

الوصية : لون من ألوان الأدب العربي، وتحديداً هي فن من فنون النثر، عُرفَ في القديم ووصلنا عبر الرواة والحفظة للأشعار والأخبار، وجمعت لنا في كتب الأدب عامة.

وهي خلاصة تجارب الموصي في حياته، وخلاصة خبرته التي جمعها طيلة مكوثه في الدنيا، يقدمها إلى من يخصه أو يخصونه عندما يقترب من مفارقة الدار الأولى _وذلك ليس شرطاً_ لتكون بمثابة إرشاد ونصح لهم في أمور كثيرة. والوصية إما أن تكون منطوقة أو مكتوبة، تتضمن كلاماً بليغاً يوجهه الموصي إلى ابنه أو ابنته أو تلميذه أو إلى قبيلته جمعاء.

ولا تكون الوصايا شفوية فقط، فهناك الوصايا الكتابية التي دوّنها قائلوها بغية نقلها إلى مكان آخر أو حفظها للأجيال القادمة، وتكون على شكل رسالة يكتبها الموصي مفرغاً فيها ما عنده من تجارب وخبرة وعلوم ويبعثها إلى الموصى إليه، سواء أكانت فرداً أم جماعة لتحصل بهذه الوصية الفائدة الكاملة. إذاً، فالوصايا هي كل ما يُلفظ أو يُكتب أو يوجَّه إلى الآخرين مشافهة أو تدويناً، ويراد منه الحضّ على أمور كثيرة والالتزام بها أو النهي عنها، دينية كانت أو دنيوية [٧١].

---

(٧١) قضايا النقد في وصايا النقد : علاء محمد شدوح ، مجلة جيل الدراسات الادبية والفكرية ، ع٣ ، سبتمبر ٢٠١٤ ، ص١١ .

والوصايا من الفنون النثرية القديمة والمهمة، تُضاهي في أهميتها فنّ الخطابة والرسائل والمقامات حيث تمتلك مزايا متعددة تفرقها عن غيرها من الفنون رغم وجود شيء من التشابه بينها وبين بعض الأنواع النثرية القديمة [٧٢].

و تتعدد أنواع الوصايا بتعدد الزوايا التي يتم من خلالها النظر إليها، فإذا ما تمّ النظر إلى هذه الزوايا من جهة الموضوع فإن من أنواعها : الوصايا الدينية، الوصايا الشعرية، الوصايا النقدية، وإذا ما تم النظر إليها من جهة الشكل فإن من أنواعها: الوصايا الشفوية، والوصايا الكتابية [٧٣].

فالوصية الدينية "تدعو إلى الإيمان بالله وحده، والإحسان إلى الوالدين وتأمر بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر عند المصيبة والتواضع وعدم الفخر، والى المعاملة الحسنة وخفض الصوت عند الحديث، وهي مبادئ تعالج علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه وبالمجتمع"[٧٤]، وقد كثرت هذه الوصايا في العصر العباسي ، ومنها وصية عبد الملك بن صالح لابنه حين أوصاه فقال :

أى بنى احلم فإن من حلم ساد ومن تفهم ازداد والق أهل الخير فإن لقاءهم عمارة للقلوب ولا تجمح بك مطية اللجاج وفيك من أعتبك والصاحب

(٧٢) أدب الوصايا : روان مطر ، ص٥ .

(٧٣) قضايا النقد في وصايا النقد ، ص١٢ .

(٧٤) تاريخ الوصايا: فرج أبو ليلى ، ص ٢٣-٢٤.

المناسب لك والصبر على المكروه يعصم القلب المزاح يورث الضغائن وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف والاقتصاد يثمر القليل والإسراف يبير الكثير ونعم الحظ القناعة وشر ماصحب المرء الحسد وما كل عورة تصاب وربما أبصر العمي رشده وأخطأ البصير قصده واليأس خير من الطلب إلى الناس والعفة مع الحرفة خير من الغنى مع الفجور ارفق في الطلب وأجمل في المكسب فإنه رب طلب قد جر إلى حرب ليس كل طالب بمنجح ولا كل ملح بمحتاج والمغبون من غبن نصيبه من الله عاتب من رجوت عتباه وفاكه من أمنت بلواه لاتكن مضحاكا من غير عجب ولا مشاء إلى غير أرب ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فإنه إنما سعى في مضرته ونفعك وعود نفسك السماح وتخير لها من كل خلق أحسنه .

فإن الخير عادة والشر لجاجة والصدود اية المقت والتعلل اية البخل ومن الفقه كتمان السر ولقاح المعرفة دراسة العلم وطول التجارب زيادة في العقل والقناعة راحة الأبدان والشرف التقوى والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه بالعقل تستخرج الحكمة وبالحلم يستخرج غور العقل ومن شمر في الأمور ركب البحور شر القول ما نقض بعضه بعضا ومن سعى بالنميمة حذره البعيد ومقته القريب من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية .

ومن توانى في نفسه ضاع من أسرف في الأمور انتشرت عليه ومن اقتصد اجتمعت له واللجاجة تورث الضياع للأمور غب الأدب أحمد من

ابتدائه مبادرة الفهم تورث النسيان سوء الاستماع يعقب العي لا تحدث من لا يقبل بوجهه عليك ولا تنصت لمن لا ينمى بحديثه إليك البلادة للرجل هجنة قل مالك إلا استأثر وقل عاجز إلا تأخر الإحجام عن الأمور يورث العجز والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ سوء الطعمة يفسد العرض ويخلق الوجه ويمحق الدين الهيبة قرين الحرمان والجسارة قرين الظفر .

وفيك من أنصفك وأخوك من عاتبك وشريكك من وفى لك وصفيك من اثرك أعدى الأعداء العقوق اتباع الشهوة يورث الندامة وفوت الفرصة يورث الحسرة جميع أركان الأدب التأنى للرفق أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب فإنك لا تجد بما تبذل من دينك ونفسك عوضا لا تساعد النساء فيمللنك واستبق من نفسك بقية فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار خير من أن يطلعن منك على انكسار لا تملك المرأة الشفاعة لغيرها فتميل من شفعت لها عليك معها أى بنى إنى قد احترت لك الوصية ومحضتك النصيحة وأديت الحق إلى الله في تأديبك فلا تغفلن الأخذ بأحسنها والعمل بها والله موفقك .

فالوصايا الدينية على علاقة وطيدة جداً بالدين الإسلامي، وتعاليمه وأخلاقه وما حلّل وما حرم، يوصي بها أجلَّةٌ من الأدباء والعلماء والحكماء والمتفقهين والملتزمين بنواحي الدين الحنيف إلى من يريدون من أبناء وتلاميذ أو إلى المجتمع بأكمله. وهذه الوصايا وما يشاكلها مما ستتوقف عندها الدراسة في موطن لاحق(٧٥).

---

(٧٥) أدب الوصايا : روان مطر ، ص٦ .

وهناك الوصايا الشفوية وهي كل وصية يقولها الموصي مشافهة لمن يريد مباشرة، دون أن يدونها أو يوثقها في رسالة أو كتاب، وهذه الوصايا غالباً ما تكون عندما تحضر الوفاة شخصاً معيناً أو في الساعات الأخيرة من عمره، فهو يريد منها أن يوصل كل خبرته وتجاربه في الحياة لأبنائه أو طلابه أو عشيرته بأكملها بأسلوب جميل مؤثر يأخذ بالقلوب عند سماعه. فلا حاجة له أن يوثق وصيته أو أنْ يدونها ، ومثل هذا النوع من الوصايا إن وجدناه مدوّنا في رسالةٍ أو كتاب من أمهات الكتب، إنما يكون قد دونّها الكُتَّاب عن الرواة ولم يدوّنها صاحب الوصية نفسه [٧٦] .

ومن ذلك وصية المنصور لابنه المهدى ، فوصاه فقال له [٧٧] :

إنى لم أدع شيئا إلا قد تقدمت إليك فيه وسأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها وكان له سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحدا يصر مفتاحه في كم قميصه فقال للمهدى انظر هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم ابائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فإن أحزنك أمر فانظر في الدفتر الأكبر فإن أصبت فيه ما تريد وإلا فالثانى والثالث حتى بلغ سبعة فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل .

---

(٧٦) قضايا النقد في وصايا النقد ، ص١٣ .

(٧٧)جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة :٣/٣٥ وما بعدها .

وانظر هذه المدينة فإياك أن تستبدل بها فإنها بيتك وعزك قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم وتوطىء الناس أعقابهم وتوليهم المنابر فإن عزك عزهم وذكرهم لك وما أظنك تفعل .

وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في أهله وولده وما أظنك تفعل.

وإياك أن تبني مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وما أظنك تفعل وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم وأظنك ستفعل وإياك أن تدخل النساء في مشورتك في أمرك وأظنك ستفعل .

أما الوصايا الكتابية : فهي التي يكتبها موصيها في رسالة – وليس المقصود هنا الرسالة الأدبية – أو كتاب ويبعثها إلى الموصى إليه ليقرأها ويستفيد منها ويلتزم بما جاء فيها. ويتميز هذا النوع من الوصايا بفصاحة أكثر وتركيز أكبر وأسلوب أليق، لأن الموصي يكتبها بأناة ورويّة دون حاجته

إلى القوْل عفو الخاطر، فيبعثها على شكلها النهائي إلى الموصى إليه مكتوبة بخط يده أو تحبيره[٧٨] . و مثال على هذا النوع وصية بشر بن المعتمر التي بعثها إلى إبراهيم بن جبلة وتلاميذه الذين كان يعلمهم الخطابة [٧٩] :

" خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين وغُرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة المجاهدة، وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

وإياك والتوعر، فإن التوعر يسْلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك .ويشين ألفاظك . ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما.

فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس

---

(٧٨) قضايا النقد في وصايا النقد ، ص١٣-١٤ .

(٧٩)البيان والتبيين، ١/١٣٥ وما بعدها .

يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد.

فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك وما لك عابك من أنت أقل عيبا منه ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق.

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك، فإنك لم تشتهها ولم تنازع إليها إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة .

وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحن وبها أشغف.

ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا : العرض والجوهر وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهذية والهوية الماهية وأشباه ذلك .

وهناك أيضا الوصايا الوصايا النقدية : وهي الوصايا التي يقصد منها أصحابها، التنبيه على قضايا النقد والبلاغة في فنون الأدب العربي. فيوصى صاحبها من يريد بالالتزام في بعض قضايا النقد الأدبي وعدم الخروج عليها أو النهي عن بعضها الآخر إن قال شعراً أو نثراً، مثل قضية اللفظ والمعنى والوزن والقافية والسرقات الشعرية وغيرها (٨٠).

ومن هذه الوصايا: وصية أبي تمام للبحتري (٨١)، حيث يقول البحتري : كنت في حداثتى أروم الشّعر، وكنت أرجع فيه إلى طبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتّكلت في تعريفه عليه؛ فكان أول ما قال لى:

يا أبا عبادة؛ تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه في وقت السّحر؛ وذلك أن النّفس قد أخذت حظّها من الراحة، وقسطها من النوم، وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا، والمعنى رقيقا، وأكثر فيه من بيان الصّبابة، وتوجّع الكابة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيّد ذى أياد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالمه، وشرف مقامه، ونضدّ المعانى ، واحذر المجهول منها، وإيّاك أن تشين شعرك بالألفاظ

(٨٠) أدب الوصايا : روان مطر ، ص١١ .

(٨١)زهر الآداب وثمر الألباب ، ١٥٢/١ .

الرديئة، ولتكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجساد. وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلّا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذّريعة إلى حسن نظمه؛ فإن الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله .

هذا وقد اتسمت الوصايا الأدبية بكل أنواعها في العصر العباسي ، بخلوها من التعقيد والتكلف، فجاءت سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، رصينة وقوية في نفس الوقت، لها وقعٌ وتأثيرٌ في مسمع الموصى له، مما تحثه على الانتباه والتفكر في مضمون الوصية كاملة ومثال ذلك وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه محمد حيث قال: "أي بني إني مؤد حق الله في تأديبك، فأد إليَّ حقّ الله في الاستماع منيّ، أيّ بني كُفّ الأذى، وارفض البذل، واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام، فإنّ للقول ساعاتٍ يضرّ فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب، واحذر مشورة الجاهل وإنَّ كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً، لأنه يرديك بمشورته..." [٨٢]، فلو قرأ هذه الوصيّة أيُّ قارئ لفهمها كلها، دون أن يستعصي عليه لفظٌ من الألفاظ أو معنىً من المعاني.

[٨٢]زهر الآداب وثمر الألباب ، ١/١٢٠.

وهو ما نلاحظه أيضا في وصية أخرى للمنصور يوصى فيها المهدى [٨٣]فيقول:

اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجا ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب احفظ يا بنى محمدا في أمته يحفظ الله عليك أمورك وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم وعار في الدنيا لازم مقيم والزم الحلال فإن فيه ثوابك في الاجل وصلاحك في العاجل وأقم الحدود ولا تعتد فيها فتبور فإن الله لو علم أن شيئا أصلح لدينه وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمربه في كتابه واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فسادا مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم فقال :

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم) فالسلطان يا بنى حبل الله المتين وعروته الوثقى ودين الله القيم فاحفظه وحطه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين فيه واقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو وأنجع في الدواء وعف عن الفىء فليس بك

---

[٨٣]جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، ٣٦/٣ .

إليه حاجة مع ما أخلفه لك وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية .

واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبل وخص الواسطة ووسع المعاش وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم واصرف المكاره عنهم وأعد الأموال واخزنها وإياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة والحوادث غير مضمونة وهى من شيم الزمان وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت.

وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد فتتدارك عليك الأمور وتضيع جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا واجتهد وشمر فيها وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل .

واستعمل حسن الظن بربك وأسىء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك وسهل إذنك للناس وانظر في أمر النزاع إليك ووكل بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ هذه وصيتى إليك والله خليفتى عليك .

الفصل الثاني

الفنون النثرية المستحدثة

المناظرات

المناظرة : هي الحوار بين فريقين حول موضوع ما، لكل منهما وجهة نظر تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه ، مع رغبته الصادقة بظهور الحق، والاعتراف به لدى ظهوره [٨٤].

ولعل أشكال المناظرة وجدت منذ العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، وكانت تبدو أحياناً في ثوب من المحاورات والجدل يدور بين الكفار والمسلمين أو بين المسلمين أنفسهم، وكثيراً ما كانت هذه المحاورات سياسية في المقام الأول كما كان عليه الأمر في العصر الأموي ، وفي العصر العباسي كثرت هذه المناظرات بسبب الصراعات السياسية والفكرية والأدبية والدينية والنحوية وغيرها، وقد تجلت هذه المناظرات في المحاورات والمجادلات التي حمل لواءها المعتزلة مع الفرق الأخرى وعلى رأسها الأشعرية[٨٥] .

والمناظرة لا تقتصر على المجال الأدبي بل لها موضوعات متعددة منها السياسي واللغوي والديني والاجتماعي والفلسفى، وقد حفظ لنا التراث مناظرات مشهورة كالمناظرة النحوية بين سيبويه والكسائي، وقد تعددت مثل هذه

---

(٨٤)فن المناظرات الشعرية : وجيه سالم ، ص ٩.

(٨٥)السابق ، ص ٤-٥ .

المناظرات النحوية بين البصريين والكوفيين، ومن المناظرات المشهورة مناظرة النحو والمنطق بين السيرافي و متى بن يونس [٨٦]:

لما انعقد المجلس سنة ست وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير ابن الفرات للجماعة – وفيهم الخالدي وابن الأخشاد والكتبي وابن أبي بشر وابن رباح وابن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهري وعلي بن عيسى الجراح وابن فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوي ورسول ابن طغج من مصر والمرزباني صاحب آل سامان: ألا ينتدب منكم إنسان لمناظرة متى في حديث المنطق، فإنه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناه من المنطق وملكناه من القيام به، واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده، فأطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه.

فأحجم القوم وأطرقوا قال ابن الفرات: والله إن فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه وإني لأعدكم في العلم بحاراً، وللدين وأهله أنصاراً، وللحق وطلابه مناراً؛ فما هذا الترامز والتغامز اللذان تجلون عنهما؟

فرفع أبو سعيد السيرافي في رأسه فقال: اعذر أيها الوزير، فإن العلم المصون في الصدر غير العلم المعروض في هذا المجلس على الأسماع

---

(٨٦) الامتاع والمؤانسة لأبي حيان، ص ٩٠ وما بعدها .

المصيخة والعيون المحدقة والعقول الحادة والألباب الناقدة؛ لأن هذا يستصحب الهيبة، والهيبة مكسرة، ويجتلب الحياء، والحياء مغلبة.

فقال ابن الفرات: أنت لها يا أبا سعيد، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك.

فقال أبو سعيد: مخالفة الوزير فيما رسمه هجنة، والاحتجاز عن رأيه إخلاد إلى التقصير؛ ونعوذ بالله من زلة القدم، وإياه نسأل حسن المعونة في الحرب والسلم؛ ثم واجه متى فقال: حدثني عن المنطق ما تعني به؟ فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سننٍ مرضيٍ وطريقة معروفة.

قال متى: أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، كالميزان، فإني أعرف به الرجحان من النقصان، والشائل من الجانح.

فقال أبو سعيد: أخطأت، لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية؛ وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعق إذا كنا نبحث بالعقل؛ وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لك بمعرفة الموزون أيما هو حديد أو ذهب أو شبه أو رصاص؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدها؛ فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه

اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهادك، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد، وبقيت عليك وجوه، فأنت كما قال الأول:

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وبعد، فقد ذهب عليك شيء هاهنا، لي كل ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن، وفيها ما يكال، وفيها ما يذرع، وفيها ما يمسح وفيها ما يحرز وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية، فإنه على ذلك أيضاً في المعقولات المقررة؛ والإحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد، مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة. ودع هذا؛ إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضياً وحكماً لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكره رفضوه؟

قال متى: إنما لزم ذلك لأن المنطق بحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة، وتصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة؛ والناس في المعقولات سواء ألا ترى أن أربعةً وأربعة ثمانية سواءٌ عند جميع الأمم، وكذلك ما أشبهه.

قال أبو سعيد: لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة وأنهما ثمانية، زال الاختلاف وحضر الاتفاق، ولكن ليس الأمر هكذا، ولقد موهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه؛ ولكن مع هذا أيضاً إذا كانت

الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟ قال: نعم. قال: أخطأت، قل في هذا الموضع: بلى. قال: بلى، أنا أقلدك في مثل هذا.

قال: أنت إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق، إنما تدعونا إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟ وقد عفت منذ زمان طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها؛ على أنك تنقل من السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغةٍ أخرى سريانية، ثم من هذه إلى أخرى عربية؟ قال متى: يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني، وأخلصت الحقائق.

قال أبو سعيد: إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت، وقومت وما حرفت، ووزنت وما جزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدمت ولا أخرت، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ولا بأخص الخاص ولا بأعم العام – وإن كان هذا لا يكون، وليس هو في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني – فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه.

قال متى: لا، ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه، وبفضل

عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع، ولم نجد هذا لغيرهم .....إلخ) .

ومن المناظرات الفقهية الشهيرة بين الأشعرى والجبائي [٨٧]، فقيل: إن أبا الحسن المذكور سأل أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة: أحدهم كان مؤمنا برا تقيا، والثاني كان كافرا فاسقا شقيا، والثالث كان صغيرا، فماتوا فكيف حالهم فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة، فقال الأشعري:

إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له فقال الجبائي: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعري: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة، فقال الجبائي: يقول الباري جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، فقال الأشعري: فلو قال الأخ الكافر: ياإله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني فقال الجبائي للأشعري: انك لمجنون ، فقال : لا بل وقف حمار الشيخ في العقبة ، فانقطع الجبائي .

واتسعت في هذا العصر المناظرات الكلامية، وحمل لواءها المعتزلة من أصحاب واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، ولم يكن همهم أن يردوا على

---

(٨٧)وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان ، ٢٦٧/٤ .

مخالفيهم من الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الذي كان يقول بالجبر، والمرجئة الذين قالوا بأنه لا يجوز تكفير المسلم، ولا الحكم على أعماله، حتى لوة ارتكب كبيرة. لم يكن همهم أن يردوا على هاتين الفرقتين فقط، بل انصرف همهم إلى الرد على الدهرية والزنادقة، ونراهم في عصر المأمون يدعون إلى أن القرآن ليس أزليًّا، إنما هو مخلوق، واستطاعوا أن يؤثروا في المأمون حتى اعتنق فكرتهم، وأعلنها عقيدة رسمية للدولة، وأخذ في امتحان من يؤمنون بها في آفاق دولته، على نحو ما كان يمتحن جده المهدي الناس في عقيدة المانوية، وتبعه المعتصم في تلك السيرة، حتى إذا ولي المتوكل ترك الناس وشأنهم[٨٨] .

ومنها مناظرة مناظرة بين أبى الهذيل ويهودى ، حيث روى أبو يعقوب الشحام [٨٩] قال: قال لي أبو الهذيل: أول ما تكلمت أني كان لي أقل من خمس عشرة سنة وهذا في السنة التي قتل فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بباخمرى وقد كنت أختلف إلى عثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء فبلغني أن رجلاً يهوديا قدم البصرة وقد قطع عامة متكلميهم فقلت: لعمي: يا عم امض بي إلى هذا اليهودي أكلمه فقال لي: يا بني هذا اليهودي قد غلب جماعة متكلمي أهل البصرة فمن أخذك أن تكلم من لا طاقة لك بكلامه فقلت له لا بد من أن تمضي بي إليه وما عليك مني غلبني أو غلبته .

---

(٨٨)الفن ومذاهبه : شوقى ضيف ، ص ١٢٧.

(٨٩)تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، ٣٦٨/٣.

فأخذ بيدي ودخلنا على اليهودي فوجدته يقرر الناس الذين يكلمونه بنبوة موسى ثم يجحدهم نبوة نبينا فيقول: نحن على ما اتفقنا عليه من صحة نبوة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقر به قال: فدخلت عليه فقلت له: أسألك أو تسألني فقال لي: يا بني أو ما ترى ما أفعله بمشايخك؟ فقلت له: دع عنك هذا واختر إما أن تسألني أو أسألك قال: بل أسألك خبرني أليس موسى نبياً من أنبياء الله قد صحت نبوته وثبت دليله تقر بهذا أو تجحده فتخالف صاحبك ؟!

فقلت له: أن الذي سألتني عنه من أمر موسى عندي على أمرين أحدهما أني أقر بنبوة موسى الذي أخبر بصحة نبوة نبينا وأمر باتباعه وبشر به وبنبوته فإن كان عن هذا تسألني فأنا مقر بنبوته وإن كان موسى الذي تسألني عنه لا يقر بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولم يأمر باتباعه ولا بشر به فلست أعرفه ولا أقر بنبوته بل هو عندي شيطان يحرق فتحير لما ورد عليه ما قلته له .

وقال لي: فما تقول في التوراة؟ قلت: أمر التوراة أيضاً على وجهين أن كانت التوراة التي أنزلت على موسى النبي الذي أقر بنبوة نبيي محمد فهي التوراة الحق وإن كانت أنزلت على الذي تدعيه فهي باطل غير حق وأنا فغير مصدق بها.

فقال لي: أحتاج إلى أن أقول لك شيئاً بيني وبينك فظننت أنه يقول شيئاً من الخير فتقدمت إليه فسارني فقال: أمك كذا وكذا وأم من علمك لا يكنى

وقدر أني أثب به فيقول: وثبوا بي وشغبوا علي فأقبلت على من كان بالمجلس فقلت: أعزكم الله أليس قد وقفتم على مسألته إياي وعلي جوابي إياه؟ قالوا لي: نعم فقلت: أليس عليه واجب أن يرد على جوابي؟ قالوا: نعم.

قلت لهم : فإنه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد وشتم من علمني وإنما قدر أن أثب به فيدعي أنا واثبناه وشغبنا عليه وقد عرفتكم شأنه بعد انقطاعه فأخذته الأيدي بالنعال فخرج هاربا من البصرة وقد كان له بها دين كثير ، فتركه وخرج هاربا لما لحقه من الانقطاع) .

ومناظرته مع المجوسي ، حيث حكى أبو الهذيل فقال [٩٠]:

(قلت لمجوسي ما تقول في النار قال بنت الله قلت فالبقر قال ملائكة الله قص أجنحتها وحطها الى الأرض يحرث عليها فقلت فالماء قال نور الله قلت فما الجوع والعطش قال فقر الشيطان وفاقته قلت فمن يحمل الأرض ؟ قال : بهمن الملك ، قلت : فما في الدنيا شر من المجوس ؛ أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ، ثم شووها ببنت الله ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته، ثم سلحوها على رأس بهمن أعز ملائكة الله ، فانقطع المجوسي وخجل مما لزمه) .

وقد كانت المناظرة في موضوع من الموضوعات تنعقد أحيانا بين اثنين منهم، فتظل أياما لا في أصول الدين، ولا في الرد على الملحدين فحسب، بل في كل موضوع يمكن أن يفد إلى أذهانهم، وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من

---

(٩٠)تاريخ دمشق : لابن عساكر ، ٣٣١/١٧.

كتابه الحيوان بمناظرة انعقدت بين معبد، والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل، وظل يورد أدلة كل منهما في صورة رائعة، وهي صورة تدل دلالة بينة على مدى ما أصابه هؤلاء المتكلمون من تنويع لأفكارهم، وتصحيح لمقدماتهم [٩١] .

ومن أخطر القضايا التي شغلت المسلمين علماء وعامة في الثلث الأول من القرن الهجري الثالث قضية خلق القرآن، التي طلع بها المعتزلة، وتبناها الخليفة المأمون ثم المعتصم والواثق، وأثارت جدلًا كبيرًا بين المسلمين، فقد كان المعتزلة يعتمدون على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية، وأقاموا مذهبهم على خمسة أصول، أولها التوحيد،. ونشأ عن فكر المعتزلة هذا (عدم قدم الصفات) أن القرآن مخلوق لله تعالى لأنهم ينفون عنه سبحانه صفة الكلام، وأهل السنة يرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق [٩٢] ، ولا نبالغ إذا قلنا: إن المتكلمين من معتزلة، وغير معتزلة نهضوا بالنثر العباسي نهضة رائعة، فقد كان المتكلم لا يحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا أخذ نفسه بثقافة فلسفية واسعة [٩٣] .

---

(٩١)الفن ومذاهبه : شوقى ضيف ، ص ١٢٨.

(٩٢)قضايا قرآنية : فضل عباس ، ص٢٤٤ .

(٩٣)الفن ومذاهبه : شوقى ضيف ، ص ١٢٧.

المقامة

يمكن تعريف المقامة في الأدب العربي بأنها : قصة قصيرة الحجم تكتب بلغة مموسقة (إيقاعية) وموضوعها يدور على حدث واحد متخيل (مستلهمة من أحداث الكدية) وشخصياتها الثانوية محدودة (تتمثل في الضحية أو المخدوع الذي تقع عليه حيلة بطل المقامة، وهي شخصيات تتغير من مقامة إلى أخرى)، ويلعب دور البطولة فيها بطل محتال، جواب آفاق، ويشاركه راوية يتعرف عليه إثر كل مغامرة، ويرويها عنه، وتقع أحداثها في حدود مدينة أو منطقة واحدة ، وفي زمن لا يتجاوز مقدار يوم وليلة، وغايتها الغوص في قاع المجتمع لتعرية الواقع الاجتماعي، ونقد الطبقات الاجتماعية والأنماط البشرية السالبة [٩٤].

ويذهب د. شوقي ضيف إلى أن المقامة ليست قصة وإنما هي حديث أدبي بليغ ، و المقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر، ولعله من أجل ذلك سمّاها بديع الزمان مقامة، ولم يسمّها قصة ولا حكاية، فهي ليست أكثر من حديث قصير، وكل ما في الأمر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوّقاً فأجراه في شكل قصصي[٩٥].

فالمقامة إذن تقوم أساساً – من الناحية الموضوعية – على حكاية مغامرات، يقوم بها جميعاً في المقامات العربية بطل واحد، وتنتهي جميعها

---

(٩٤) النثر العربي القديم : محمد النجار ، ص ٢٨٢.

(٩٥) فنون الأدب العربي، المقامة : شوقي ضيف ، ص ٨.

إلى نجاحه في التحايل على الناس، ووصوله إلى تحقيق مآربه من هذا التحايل من كسب ونوال، وإلى جوار هذا البطل يوجد راوية واحد ينقل لنا أخبار هذا البطل وحيلة وبطولاته، وأثناء عرض هذه البطولات وتلك المغامرات تبرز بعض مظاهر النقد الاجتماعي، والألغاز والأخبار المتصلة بالحياة الأدبية، وفوق كل ذلك عرض ألوان من الصناعات البديعية بشكل مكثف، ولكي ينجح الكاتب في ذلك، يجب عليه أن يحسن اختيار بطل بارع في اللغة والأدب، سريع النكتة حاضر البديهة، ذي ظرف في تقديم حيله وأكاذيبه، ومع تفوقه في كل هذه الصفات يجب أن يكون في حالاته كلها تقريباً متسوّلاً ماكراً ولوعاً بالملذات ومستهتراً يحتال للحصول على المال ممن يخدعهم [٩٦].

ولا خلاف على أن نشأة المقامات الأدبية كانت مشرقية ، أما الذي لا اتفاق عليه فهو زمن هذه النشأة وصاحب الفضل فيها، ومهما يكن من شأن الاختلاف حول منشئ المقامات، فإنه يدور حول ثلاثة أسماء كبيرة في تاريخ تراثنا الأدبي والفكري، عاش أصحابها بين القرنين الثالث والرابع وهم: بديع الزمان، وابن دريد، وابن فارس [٩٧] .

لقد كان بديع الزمان أول من أطلق اسم (المقامات) على عمل أدبي من إنشائه، وقد لاقت مقاماته قبولاً في نفوس معاصريه، حتى إن أبا بكر

---

(٩٦)دراسات في الأدب المقارن : بديع محمد جمعة ، ص ٢٢٩.

(٩٧)المقامة العربية هل لها آثار على الآداب الموازية؟ : بديعة خليل الهاشمي .

الخوارزمي حين أراد الانتقاص من قدره لم يملك إلا أن يقول إنه لا يحسن سواها وأنه يقف عند منتهاها . [٩٨]

ويشير الحريري في مقدمة مقاماته أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من أنشأ هذا الفن الجديد، فيقول: فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان، رحمه الله تعالى، وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يُعرف ونكرة لا تتعرف، فإشارة من إشارته حكم، وطاعته غنم، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وإن لم يدرك الظّالع شأو الضّليع. [٩٩]

وقد عارض هذا الرأي زكي مبارك في كتابه «النثر الفني»: «وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من أنشأ فن المقامات، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفن.... وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكراً فن المقامات ، وإنما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ [١٠٠].

أما الدكتور شوقي ضيف فيظن أن بديع الزمان كان يعرض على طلابه أحاديث ابن دريد، وأنه عارضها ، فالصلة بين الصنيعين واضحة، فالمقامة

---

(٩٨)نشأة المقامة في الأدب العربي : حسن عباس ، ص ٢٥.

(٩٩)مقامات الحريري ، ص ٧ .

(١٠٠)النثر الفني : زكي مبارك ، ص ١٨٥–١٨٦.

الأسدية عند البديع تعدّ صيغة نهائية لصفة الأسد في ذيل الأمالي التي ذكر فيها أحاديث ابن دريد ، وكذلك الشأن في المقامة الحمدانية وما جاء فيها من صفة الفرس فإنها تكميل وتتميم لما جاء في الأمالي من وصف الفرس. وقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقاماته وهي الكدية أو الشحاذة ، استمدها من خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام التي رواها صاحب الأمالي عن ابن دريد [١٠١].

وقد ارتبطت نشأة المقامات في الأدب العربي بفساد كل من الحياتين الاجتماعية والأدبية ، ففي خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وما تلاه، سيطر البويهيون على مراكز الخلافة الإسلامية في بغداد ، وأدى ذلك إلى تفتت الدولة الإسلامية وظهور دويلات متعددة، ونتج عن ذلك جماعات حاكمة متمتعة بكل الحقوق في مقابل كثرة إسلامية كادحة، وأصبح لزاماً على الأدباء المتطلعين إلى حياة كريمة الاتصال بالحكام والأمراء مادحين إياهم أملاً في العطايا والهبات، فأصبح الأدب وسيلة للكسب، وظهرت جماعة من العامة تتخذ من الأدب وسيلة إلى التسول أحياناً والنصب أحياناً أخرى، وكان من هؤلاء طائفة الساسانيين، وكانوا أهل كدية يتجولون في البلاد محتالين على الناس، أملاً في التكسب وابتزاز الأموال بالدهاء والحيل [١٠٢] .

---

(١٠١)المقامة : شوقي ضيف ، ص ١٧.

(١٠٢)دراسات في الأدب المقارن : بديع محمد جمعة، ص ٢٢٧.

فلم يكن هدف الهمذاني من تأليف المقامات التفكه والتندر والسخرية، بل أراد أن يرصد الحياة من حوله فهو قد ضاق ذرعاً بها، وأن الحياة الضنك التي كانت تفرض سلطانها على السواد قد آذت نفسه، وأمضت ضميره، فلم يملك إلا أن يصورها في صورة ترفع الإحباط عن كواهل السواد، وتمسح ما بهم من قنوط، وتثير فيهم الإحساس بما يعانون(١٠٣).

ويمكن القول بأن الهمذاني قد أدرك بثاقب بصيرته أجواء المجتمع الذي يعيشه، فهو كان في مجتمع يعاني من اصطراع وتضارب أدى الى الانفلات تارة، وإلى الانضباط تارة أخرى بسبب انفتاح المجتمع على شعوب وأمم شتى لم ينحرف الهمذاني مع تيارها، بل عقد العزم على معالجة ما أورثته هذه الاجواء من شتات فكري وتمزق اجتماعي واهتزاز في القيم والعوائد والمفاهيم التي أفرزت شخوصا قلقة ضالة تحت وطأة الشعور بالتجاهل والانسحاق، كأبي فتح، الذي صار رمزا لشرائح واسعة في ذلك المجتمع، فاتخذه الهمذاني بطلا لمقاماته، ونصب معه (عيسى بن هشام) راوياً يلاحقه، مرافقاً ومؤنباً ومسلطاً الاضواء على تصرفاته، ما بطن منها وما ظهر.

و(مقامات الهمذاني) تعد النموذج الرائد في بناء الفن عبر مسيرته الطويلة التي ابتدأت في العصر العباسي في أواسط القرن الرابع الهجري، حتى العصر الحديث. وقد كانت هذه المقامات ذات أسلوب يضاهي الشعر سحراً وبياناً، زاخرة بالصور الرائعة التي برع في تخطيطها. ولتحسس بديع

(١٠٣)بناء المفارقات في فن المقامات ، نجلاء الوقاد ، ص ٥.

الزمان الهمذاني مجالات الانحراف في مجتمعه جعل عشرين مقامة منها مسرحا للكدية والاحتيال. وكان للنقد الاجتماعي فيها نصيب أيضا مثلما كان لأدب المقامة حضور واضح فيها [١٠٤].

ومن مقاماته الْمَقَامَةُ الْقَرِيضِيّةُ [١٠٥]:

حَدّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: طَرَحَتْنِي النّوَى مَطَارِحَهَا حَتّى إذَا وَطِئْتُ جُرْجَان الأَقْصى. فاسْتَظْهَرْتُ عَلَى الأَيَامِ بِضِياعٍ أَجَلْتُ فِيهاَ يَدَ الْعِمَارةِ، وَأَمْوَالٍ وَقَفْتُهَا عَلى التّجَارَةِ، وَحَانُوتٍ جَعَلْتُهُ مَثَابَةٍ، وَرُفْقَةٍ اتّخَذْتُهَا صَحَابَةً، وَجَعَلْتُ لِلْدّارِ، حَاشِيَتَيِ النّهَار، وللحَانُوتِ بَيْنَهُمَا، فَجَلَسْنَا يَوْماً نَتَذَاكَرُ القرِيضَ وَأَهْلَهُ، وَتِلْقَاءَنا شَابّ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنّهُ يَفْهَمُ، وَيَسْكتُ وَكَأَنّهُ لاَ يَعْلَمُ حَتّى إذَا مَالَ الكَلاَمُ بِنَا مَيْلَهُ، وَجَرّ الْحِدَالُ فِينَا ذَيْلَهُ، قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ عُذَيْقَهُ، وَوَافَيتُمْ جُذَيْلَهُ، وَلَوْ شِئْتُ لَلَفَظْتُ وَأَفَضْتُ، وَلَوْ قُلْتُ لأَصْدَرْتُ وَأَوْرَدْتُ، وَلَجَلَوْتُ الْحقّ في مَعْرَضِ بَيَانٍ يُسْمِعُ الصُّمَّ، وَيُنزلُ الْعُصْمَ، فَقُلْتُ: يَا فَاضِلُ أدْنُ فَقَدْ مَنَّيْتَ، وَهَاتِ فَقَدْ أَثْنَيتَ، فَدَنَا وَقَالَ: سَلُونِي أُجِبْكُمْ، وَاسْمَعُوا أُعْجِبْكُمْ. فَقُلْنَا: مَا تَقُولُ فِي امْرِىءِ الْقَيسِ؟ قَالَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِالدِّيارِ وَعَرَصَاتِهَا، وَاغْتَدَى وَالطَّيرُ فِي وَكَنَاتِهَا، وَوَصَفَ الْخيلَ بِصِفَاتِهَا، وَلَمْ يَقُلِ الشِّعْرَ كَاسِياً. وَلَمْ يُجِدِ القَوْلَ رَاغِباً، فَفَضَلَ مَنْ تَفَتَّقَ للْحِيلةِ لِسَانُهُ، وَانْتَجَعَ لِلرَّغْبَة بَنَانُهُ، قُلْنَا:

---

(١٠٤)البناء الفني للمقامة العربية في العصر العباسي : عباس مصطفى الصالحي ، ص ٦٧ وما بعدها .

(١٠٥) مقامات بديع الزمان الهمذاني :ص٨-١٥

فَما تَقُولُ فِي الْنَّابِغَةِ؟ قالَ: يَثلِبُ إِذَا حَنِقَ، وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ، وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهِبَ، فَلاَ يَرْمي إِلاَّ صَائِباً، قُلْنَا:فَمَا تَقُولُ فِي زُهَيرٍ؟ قَالَ يُذِيبُ الشِّعرَ، والشعْرُ يُذيبَهُ، وَيَدعُو القَولَ وَالسِّحْرَ يُجِيبُهُ، قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي طَرَفَةَ: قَالَ: هُوَ مَاءُ الأَشْعَارِ وَطِينَتُها، وَكَنْزُ الْقَوَافِي وَمَدِينَتُهَا، مَاتَ وَلَمْ تَظْهَرْ أَسْرَارُ دَفَائِنِهِ وَلَمْ تُفْتَحْ أَغْلاَقُ خَزَائِنِهِ، قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ؟ أَيُّهُمَا أَسْبَقُ؟ فَقَالَ: جَرِيرٌ أَرَقُّ شِعْراً، وَأَغْزَرُ غَزْراً وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْراً، وَأَكْثَرُ فَخْراً وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْواً، وَأَشْرَفُ يَوْماً وَالْفَرَزْدَقُ أَكَثَرُ رَوْماً، وَأَكْرَمُ قَوْماً، وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى، وَإِذَا تَلَبَ أَرْدَى، وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى، وَالْفَرزدقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى، وَإِذَا احْتَقَرَ أَزرَى، وَإِذا وصَفَ أَوفَى، قُلنَا: فَمَا تَقُولُ فِي المُحْدَثِينَ منْ الشُّعَراءِ والمُتَقَدِّمينَ مِنهُمْ؟ قالَ: المُتَقَدِّمونَ أَشْرفُ لَفْظاً، وَأَكثرُ منْ المَعَاني حَظاً، وَالمُتَأَخِّرونَ أَلْطَفُ صُنْعاً، وَأَرَقُّ نَسْجاً، قُلْنا: فَلَو أَرَيْتَ مِنْ أَشْعارِكَ، وَرَوَيْتَ لَنا مِنْ أَخْبارِكَ، قالَ: خُذْهَما في مَعْرِضٍ واحِدٍ، وَقالَ:

أَما تَرَوْني أَتَغَشَّى طِمْرَاً ... مُمْتَطِياً في الضُّرِّ أَمْراً مُرَّاً

مُضْطَبناً عَلى اللَّيالي غِمَراً ... مُلاقِياً مِنْها صُرُوفاً حَمْرَا

أَقْصَى أَمانِيَّ طُلُوعُ الشِّعْرى ... فَقَد عُنِينَا بِالأَمَاني دَهْرَاً

وَكانَ هذَا الحُرُّ أَعْلى قَدْراً ... وَماءُ هذَا الوَجْهِ أَغْلى سِعْرَا

ضَرَبْتُ لِلسَّرّا قِبَاباً خُضْرَا ... فِي دَارِ دَارَا وَإِوَانِ كِسْرى

فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنٍ ظَهْرا ... وَعَادَ عُرْفُ العَيْشِ عِنْدي نُكْرَا

لَمْ يُبْقِ مِنْ وَفْرِى إلاَّ ذِكْرَا ثُمَّ إلى اليَوْمِ هَلُمَّ جَرَّا

لَوْلا عَجُوزٌ لِي بِسُرَّ مَنْ رَا وَأَفْرُخٌ دونَ جِبَالِ بُصْرَى

قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ ضُرَّا قَتَلْتَ يَا سَادَةُ نَفْسي صَبْرَا

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ، فَانَلْتُهُ مَا تَاحَ. وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاحَ. فَجَعَلْتُ أَنْفيهِ وَأُثْبتُهُ، وَأَنْكِرُهُ وَكَأَنِّي أَعْرِفُهُ، ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيهِ ثَنَاياهُ، فَقُلْتُ: الإِسْكَنْدَرِيُّ وَاللَّهِ، فَقَدْ كَانَ فَارَقَنَا خِشْفاً، وَوَافانا جِلْفاً، وَنَهَضْتُ عَلى إِثرِهِ، ثَمَّ قَبَضْتُ عَلَى خَصْرِهِ، وَقُلْتُ: أَلَسْتَ أَبَا الفَتْحِ؟ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟ فَأَيُّ عَجُوزٍ لَكَ بِسُرَّ مَنْ رَا؟ فَضَحِكَ إِلَيَّ وَقَالَ:

وَيْحَكَ هذَا الزَّمَان زُورُ فَلَا يَغُرَّنَّكَ الغُرُورُ

لاَ تَلْتَزِمْ حَالَةً، وَلكِنْ دُرْ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ.

- **الْمَقَامَةُ الحُلْوَانِيَّة**(١٠٦):

حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الحَجِّ فِيمَنْ قَفَلَ، وَنَزَلْتُ مَعَ مَنْ نَزلَ، قُلْتُ لِغُلامي: أَجِدُ شَعْرِي طَوِيلاً، وَقَدْ اتَّسَخَ بَدَنِي قَليلاً، فَاخْتَرْ لَنَا حَمَّاماً نَدْخُلهُ، وَحَجَّاماً نَسْتَعْمِلهُ، وَلِيَكُنْ الحَمَّامُ وَاسِعَ الرُّقْعَةِ، نَظِيفَ البُقْعَةِ، طَيِّبَ الهَوَاءِ، مُعْتَدِلَ المَاءِ، وَلْيِكُنْ الحَجَّامُ خَفِيفَ اليَدِ، حَدِيدَ المُوسَى، نَظيفَ الثِّيابِ، قَليلَ الفُضُولِ، فَخَرَجَ مَلِيّاً وَعَادَ بَطِيّاً، وَقالَ: قَدْ اخْتَرْتُهُ كَمَا رَسَمْتَ، فَأَخَذْنَا إِلَى الحَمَّامَ السَّمْتَ، وَأَتَيْناهُ فَلَمْ نَرَ قَوّامَهُ، لَكِنِّي دَخَلْتُهُ وَدَخَلَ عَلى أَثَرِي

(١٠٦)مقامات بديع الزمان الهمذاني : ص٢٢٣ .

رَجُلٌ وَعَمَدَ إِلى قِطْعَةِ طِينٍ فَلطَّخَ بِها جَبِينِي، وَوَضَعَها على رأَسِي، ثُمَّ خَرَجَ وَدَخَل آخَرُ فَجَعَلَ يَدْلِكُنِي دَلْكَاً يَكُدُّ العِظامَ، وَيَغْمِزُنِي غَمْزَاً يَهُدُّ الأَوْصالَ وَيُصَفِّرُ صَفِيراً يَرُشُ البُزَاقَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلى رَأَسِي يَغْسِلُهُ، وَإِلَى المَاءِ يُرْسِلهُ.

وَمَا لَبِثَ أَنْ دَخَلَ الأَوَّلُ فَحَيَّا أَخْدَعَ الثَّانِي بِمَضُمومَةٍ قَعْقَعَتْ أَنْيابَهُ، وَقَالَ: يَا لُكَعُ مَا لَكَ وَلِهَذا الرَّأْسِ وَهُوَ لي؟ ثُمَّ عَطَفَ الثَّاني عَلى الأَوَّلِ بِمَجْمُوعَةٍ هَتَكَتْ حِجَابَهُ، وَقالَ: بَلْ هَذَا الرَّأْسُ حَقِّي وَمِلْكِي وَفِي يَدِي، ثُمَّ تَلاكَمَا حّتَّى عَيِيَا، وَتَحَاكَمَا لِما بَقِيا، فَأَتَيا صَاحِبَ الحَمَّامِ، فَقَالَ الأَوَّلُ: أَنَا صَاحِبُ هَذا الرَّأْسِ؛ لأَنِّي لَطَّخْتُ جَبِينَهُ، وَوَضَعْتُ عَلَيْهِ طِينَهُ.

وَقَالَ الثَّاني: بَلْ أَنَا مَالِكُهُ؛ لأَنشي دَلَكْتُ حَامِلَهُ، وَغَمَزْتُ مَفَاصِلَهُ، فَقَالَ الحَمَّامِيُّ: ائْتُونِي بِصَاحِبِ الرَّأْسِ أَسْأَلهُ، أَلَكَ هذَا الرَّأْسُ أَمْ لَهُ، فَأَتَيَانِي وَقَالا: لَنَا عِنْدَكَ شَهَادَةٌ فَتَجَشَّمْ، فَقُمْتُ وَأَتَيْتُ، شِئْتُ أَمْ أَبَيْتُ، فَقَالَ الحَمَّامِي: يَا رَجُلُ لاَ تَقُل غَيْرَ الصِّدْقِ، وَلا تَشْهَدْ بِغَيْرِ الحَقِّ، وَقُلْ لِي: هذَا الرَّأْسُ لأيِّهِمَا؟

فَقُلْتُ: يَا عَافَاكَ اللهُ هذَا رأْسِي، قَدْ صَحِبَنِي فِي الطَّرِيقِ، وَطَافَ مَعِي بِالْبَيْتِ العَتِيقِ، وَمَا شَككْتُ أَنَّهُ لِي، فَقالَ لِي: اسْكُتْ يِا فُضُولِيُّ، ثُمَّ مالَ إِلى أَحَدِ الخَصْمَيَنِ فَقَالَ: يَا هَذَا إِلَى كَمْ هَذِهِ المُنافَسَةُ مَعَ النَّاسِ، بِهذَا الرَّأْسِ؟ تَسَلَّ عَنْ قَلِيلِ خَطَرِهِ، إِلى لَعْنَةِ اللهِ وَحَرِّ سَقَرِهِ وَهَبْ أَنَّ هَذا الرَّأْسَ لَيْسَ، وَأَنَا لَمْ نَرَ هذَا التَّيْسَ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُمْتَ مِنْ ذَلِكَ المَكَانِ خَجِلاً، وَلَبِسْتُ الثِّيابَ وَجِلاً، وَانْسَلَلْتُ مِنْ الحَمَّامِ عَجِلاً، وَسَبَبْتُ الغُلاَمَ بِالعَضِّ وَالمصِّ، وَدَقَقْتُهُ دَقَّ الجِصِّ.

وَقُلْتُ لآخَرَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِحَجَّامٍ يَحُطُّ عَنِّي هَذا الثِّقَلَ، فَجَاءَني بِرَجُلِ لَطِيفِ البِنْيَةِ، مَلِيحِ الحِلْيَةِ، في صُورَةِ الدُّمْيَةِ، فارْتَحْتُ إِلَيْهِ، وَدَخَلَ فَقَالَ: السَّلاَمُ عليْكَ، وَمِنْ أَيِّ بَلَدٍ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: مِنْ قُمَّ، فَقَالَ: حَيَّاكَ اللهُ! مِنْ أَرْضِ النِّعْمَةِ وَالرَّفَاهَةِ وَبَلَدِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَلَقَدْ حَضَرْتُ فِي شَهْرِ رَمضانَ جَامِعَها وَقَدْ أُشْعِلَتْ فِيهِ المَصَابِيحُ، وَأُقِيمَتِ التَّرَاويحُ، فَمَا شَعَرْنا إِلاَّ بِمَدِّ النِّيلِ، وَقَدْ أَتَى عَلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ، لكِنْ صَنَعَ اللهُ لِي بِخُفٍّ قَدْ كُنْتُ لَبِسْتُهُ رطْباً فَلَمْ يَحْصُلْ طِرَازُهُ على كُمِّهِ، وَعَادَ الصَّبيُّ إِلى أُمِّهِ، بَعْدَ أَنْ صَلَّيْتُ العَتَمَةَ واعْتَدَلَ الظِّلُّ،وَلَكِنْ كَيفَ كَانَ حَجُّكَ؟ هَلْ قَضَيْتَ مناَسِكَهُ كَما وَجَبَ، وَصَاحُوا العَجَبَ العَجَبَ؟

فَنَظَرْتُ إِلى المَنَارَةِ، وَمَا أَهْوَنَ الحَرْبَ عَلى النَّظَّارَةِ، وَوجَدْتُ الهَرِيسَةَ عَلى حالِهَا، وَعَلِمْتُ أَنَّ الأَمْرَ بِقَضَاءٍ منَ اللهِ وَقَدرٍ، وَإِلَى مَتَى هَذَاالضَّجَرُ؟ وَاليَوْمُ وَغَدُ، وَالسَّبْتُ وَالأَحَدُ،وَلا أَطِيلُ وَمَا هَذا القَالَ وَالقِيلَ؟وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ المُبَرِّدَفِي النَّحْوِحَدِيدُالمُوسَى فَلاَ تَشْتَغِلْ بِقَوْلِ العَامَّةِ؛فَلَوْ كَانَتْ الاسْتِطاعَةُقَبْلَ الفِعْلِ لَكُنْتُ قَدْحَلَقْتُ رَأْسَكَ،فَهَلْ تَرَى أَنْ نَبْتَدِئَ؟

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقَيْتُ مُتَحَيِّراً مِنْ بَيَانِهِ، فِي هَذَيَانِهِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَطُولَ مَجْلِسَهُ، فَقُلْتُ: إِلى غَدٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ مَنْ حَضَرَ، فَقَالوا: هَذا

رَجُلٌ مِنْ بِلادِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ لَمْ يُوَافْقُهُ هَذا المَاءُ، فَغَلَبَتْ عَلْيِهِ السَّوْدَاءُ، وَهُو طُولَ النَّهارِ يَهْذِي كَمَا تَرَى، وَوَرَاءَهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ، فَقُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ، وَعَزَّ عَلَيَّ جُنُونُهُ، وَأَنْشأْتُ أَقُولُ:

أَنَا أُعْطِي اللهَ عَهْداً مُحكَماً في النَّذْرِ عَقْدَا

لا حَلَقْتُ الرَّأْسَ مَا عِشْ تُ وَلَوْ لاقَيْتُ جَهْدَا

مقامات الحريري :

أما (مقامات الحريري) فهي خمسون مقامة صنفها ابو محمد القاسم بن علي الحريري البصري من أعلام القرن الخامس و السادس الهجريين ، وقد نسبت أكثر هذه المقامات إلى المدن كالصنعانية والحلوانية والكوفية وغيرها، ونسبت ايضا الى النقد كالدينارية، ومسألة فقهية كالفرضية او الالغاز كاللغزية. كما نسبت الى نوع من الانشاء كالقهقرية والرقطاء، والى الشعر كالشعرية، والى علم كالنحوية، او جماعة كالفراتية والبدوية والساسانية، او الى موسم كالشتوية.. وفي ذلك لم يخرج الحريري عن النهج الذي سلكه الهمذاني في هذا المجال، وقد التزم الحريري بمعلمة اخرى من معالم المقامات. فجعل لمقاماته راويا سماه الحارث بن همام البصري، وبطلاً اسمه «أبوزيد السروجي» (١٠٧).

ومنها المقامة الإسكندريّة (١٠٨):

قالَ الحارثُ بنُ هَمّامٍ: طَحا بي مَرَحُ الشّبابِ. وهوَى الاكتِسابِ. الى أن جُبْتُ ما بينَ فرْغانَةَ. وغانَةَ. أخوضُ الغِمارَ. لأجْني الثّمارَ. وأقْتَحِمُ الأخْطارَ. لكَيْ أُدرِكَ الأوْطارَ. وكُنتُ لَقِفْتُ منْ أفْواهِ العُلَماء. وثَقِفْتُ منْ وَصايا الحُكَماء. أنهُ يلْزَمُ الأديبَ الأريبَ. إذا دخَلَ البلَدَ الغريبَ. أنْ يَستَميلَ قاضِيَهُ.

---

(١٠٧)البناء الفني للمقامة العربية في العصر العباسي : عباس مصطفى الصالحي ، ص١٠١ وما بعدها .

(١٠٨) مقامات الحريري : ص ٨٤.

ويستَخْلِصَ مَراضِيَهُ. ليشْتَدّ ظهرُهُ عندَ الخصامِ. ويأمَنَ في الغُربَةِ جَوْرَ الحُكّامِ. فاتّخذْتُ هذا الأدَبَ إماماً. وجعلْتُهُ لمَصالحي زِماماً.

فما دخلْتُ مَدينةً. ولا ولَجْتُ عَرينَةً. إلا وامتزجْتُ بحاكمِها امتِزاجَ الماءِ بالرّاحِ. وتقوّيْتُ بعِنايَتِهِ تقَوّي الأجْسادِ بالأرْواحِ. فبَينَما أنا عِندَ حاكِمِ الإسكنْدَريّةِ. في عشيّةٍ عرِيّةٍ. وقد أحضَرَ مالَ الصّدَقاتِ. ليَفُضّهُ على ذوي الفاقاتِ. إذْ دخَل شيخٌ عِفْرِيَةٌ. تعْتُلُهُ امرأةٌ مُصْبِيَةٌ.

فقالت: أيّدَ اللهُ القاضيَ. وأدامَ بهِ التّراضي. إني امرأةٌ من أكرَمِ جُرثومَةٍ. وأطْهَرِ أرومةٍ. وأشرَفِ خُؤولَةٍ وعُمومَةٍ. مِيسَمي الصَّونُ. وشيمَتي الهَوْنُ. وخُلُقي نِعْمَ العَوْنُ. وبيْني وبينَ جاراتي بوْنٌ. وكان أبي إذا خطَبَني بُناةُ المجْدِ. وأرْبابُ الجَدّ. سكّتَهُم وبكّتَهُم. وعافَ وُصلَتَهُمْ وصِلَتَهمْ. واحتجّ بأنّهُ عاهَدَ اللهَ تَعالى بحَلْفَةٍ. أن لا يُصاهِرَ غيرَ ذي حِرفَةٍ. فقيّضَ القدَرُ لنَصَبي. ووَصَبي. أنْ حضَرَ هذا الخُدَعَةُ ناديَ أبي. فأقسَمَ بينَ رهْطِهِ. أنّهُ وَفْقُ شرْطِهِ. وادّعى أنهُ طالَما نظَمَ دُرّةً الى دُرّةٍ. فباعَهُما ببَدْرَةٍ. فاغْتَرّ أبي بزَخرَفَةِ مُحالِهِ. وزوّجَنيهِ قبْلَ اختِبارِ حالِه.

فلمّا استَخْرَجَني منْ كِناسي. ورحّلَني عنْ أُناسي. ونقَلَني الى كسْرِهِ. وحصّلَني تحْتَ أسرِهِ. وجدْتُهُ قُعَدَةً جُثَمَةً. وألفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُوَمَةً. وكنتُ صحبْتُهُ برِياشٍ وزِيٍّ. وأثاثٍ وريٍّ. فما برِحَ يَبيعُهُ في سوقِ الهضْمِ. ويُتْلِفُثمَنَهُ في الخَضْمِ. والقَضْمِ. الى أنْ مزّقَ ما لي بأسْرِهِ. وأنْفَقَ مالي في عُسْرِهِ. فلمّا أنْساني طعْمَ الرّاحةِ. وغادرَ بيْتي أنْقَى منَ الرّاحةِ. قلتُ له: يا هَذا إنّهُ لا مخْبأ

بعْدَ بوسٍ. ولا عِطْرَ بعْدَ عَروسٍ. فانهَضْ للاكتِسابِ بصِناعَتِكَ. واجْنِني ثمَرَةَ براعتِكَ. فزعَمَ أن صِناعَتَهُ قد رُمِيتْ بالكَسادِ. لِما ظهرَ في الأرضِ من الفَسادِ. ولي منْهُ سُلالةٌ. كأنّهُ خِلالَةٌ. وكِلانا ما يَنالُ معَهُ شُبْعَةً. ولا ترْقأُ لهُ منَ الطّوى دمعَةٌ. وقد قُدتُهُ إليْكَ. وأحضَرْتُهُ لديْكَ. لتَعْجُمَ عودَ دعْواهُ. وتحْكُمَ بيْنَنا بِما أراكَ اللهُ. فأقْبَلَ القاضي عليْهِ وقال لهُ: قد وعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ. فبرْهِنِ الآنَ عن نفسِكَ.

وإلا كشَفْتُ عن لَبْسِكَ. وأمرْتُ بحبْسِكَ. فأطْرَقَ إطْراقَ الأُفعُوانِ. ثمّ شمّرَ للحرْبِ العَوانِ. وقال:

اسْمَعْ حَديثي فإنّهُ عجَبُ ..... يُضحَكُ من شرحِهِ ويُنتحَبُ
أنا امرؤٌ ليسَ في خَصائِصِهِ ..... عيْبٌ ولا في فَخارِهِ رِيَبُ
سَروجُ داري التي ولِدْتُ بها ..... والأصلُ غسّانُ حينَ أنتسِبُ
وشُغليَ الدّرسُ والتبحُّرُ في ال ..... عِلمِ طِلابي وحبّذا الطّلَبُ
ورأسُ مالي سِحْرُ الكَلامِ الذي ... منهُ يُصاغُ القَريضُ والخُطَبُ
أغوصُ في لُجّةِ البَيان فأخ ..... تارُ اللآلي منْها وأنْتَخِبُ
وأجْتَني اليانِعَ الجَنيَّ منَ ال ..... قوْلِ وغيري للعودِ يحْتَطِبُ
وآخُذُ اللفْظَ فِضّةً فإذا ..... ما صُغْتُهُ قيلَ إنّهُ ذهبُ

وإلا كشَفْتُ عن لَبْسِكَ. وأمرْتُ بحبْسِكَ. فأطْرَقَ إطْراقَ الأُفعُوانِ. ثمّ شمّرَ للحرْبِ العَوانِ. وقال:

اسْمَعْ حَديثي فإنّهُ عجَبُ ..... يُضحَكُ من شرحِهِ ويُنتحَبُ

أنا امرؤٌ ليسَ في خَصائِصِهِ ..... عيْبٌ ولا في فَخارِهِ رِيَبُ
سَروجُ داري التي ولِدْتُ بها ..... والأصلُ غسّانُ حينَ أنتسِبُ
وشُغليَ الدّرسُ والتبحُّرُ في ال ..... عِلمِ طِلابي وحبّذا الطّلَبُ
ورأسُ مالي سِحْرُ الكَلامِ الذي ... منهُ يُصاغُ القَريضُ والخُطَبُ
أغوصُ في لُجّةِ البَيان فأخ ..... تارُ اللآلي منْها وأنْتَخِبُ
وأجْتَني اليانِعَ الجَنيَّ منَ ال ..... قوْلِ وغيري للعودِ يحْتَطِبُ
وآخُذُ اللفْظَ فِضّةً فإذا ..... ما صُغْتُهُ قيلَ إنّهُ ذهبُ
فوالّذي سارَتِ الرّفاقُ الى ..... كعْبَتِهِ تستَحثُّها النُّجُبُ
ما المكْرُ بالمُحصَناتِ من خُلُقي ... ولا شِعاري التّمويهُ والكذِبُ
ولا يَدي مُذْ نشأتُ نيطَ بها ..... إلا مَواضي اليَراعِ والكُتُبِ
بل فِكْرَتي تنظِمُ القَلائِدَ لا كفْ .. في وشعري المنظوم لا السُّخُبُ
فهَذِهِ الحِرفَةُ المُشارُ الى ..... ما كُنتُ أحوي بها وأجتَلِبُ
فأذَنْ لشَرْحي كما أذِنتَ لها ..... ولا تُراقِبْ واحكُمْ بما يجِبُ

قال: فلمّا أحكَم ما شادَهُ. وأكملَ إنشادَهُ. عطَفَ القاضي الى الفَتاةِ. بعْدَ أن شُعِفَ بالأبياتِ. وقال: أمَا إنّهُ قدْ ثبَتَ عندَ جميع الحُكّامِ. ووُلاةِ الأحْكامِ. انقِراضُ جيلِ الكِرامِ. وميْلُ الأيامِ الى اللّئامِ. وإني لإخالُ بعْلَكِ صَدوقاً في الكلامِ. بريّاً من المَلامِ. وها هو قدِ اعتَرَفَ لكِ بالقَرْضِ. وصرّحَ عنِ المَحْضِ. وبيّنَ مِصْداقَ النّظْمِ. وتبيّنَ أنّه مَعروقُ العظْمِ. وإعْناتُ المُعْذِرِ مَلأمَةٌ. وحبْسُ

المُعسِرِ مألَمةٌ. وكِتْمانُ الفَقْرِ زَهادَةٌ. وانتِظارُ الفَرَجِ بالصّبرِ عِبادَةٌ. فارْجِعي الى خِدرِك.

واعذُري أبا عُذْرِكِ. ونَهْنِهي عن غَرْبِكِ. وسلّمي لقَضاءِ ربّكِ. ثمّ إنّهُ فرضَ لهُما في الصّدقاتِ حِصّةً. وناوَلَهُما منْ دَراهِمِهما قَبصَةً. وقال لهُما: تعلّلا بهذه العُلالَةِ. وتندّيا بهذِهِ البُلالَةِ. واصْبِرا على كيْدِ الزّمانِ وكدّهِ. فعَسى اللهُ أنْ يأتي بالفَتْحِ أو أمْرٍ من عِندِه. فنَهَضا وللشّيخِ فرْحَةُ المُطْلَقِ من الإسارِ. وهِزّةُ الموسِرِ بعْدَ الإعْسارِ. قال الرّاوي: وكنتُ عرفْتُ أنهُ أبو زيدٍ ساعةَ بزغَتْ شمسُهُ. ونزغَتْ عِرسُهُ. وكدْتُ أُفصِحُ عن افتِنانِه. وأثْمارِ أفْنانِهِ. ثمّ أشفَقْتُ من عُثورِ القاضي على بُهتانِه. وتزْويقِ لِسانِه. فلا يرَى عندَ عِرْفانِه. أن يُرشِّحَهُ لإحسانِه. فأحْجَمْتُ عنِ القوْلِ إحْجامَ المرْتابِ. وطوَيتُ ذكْرَهُ كطَيّ السّجِلّ للكِتابِ. إلا أني قُلتُ بعدَما فصَلَ. ووصلَ الى ما وصَلَ: لوْ أنّ لَنا مَنْ ينطَلِقُ في أثَرِه. لأتانا بفَصّ خبَرِهِ. وبِما يُنْشَرُ من حِبَرِهِ. فأتبَعَه القاضي أحدَ أُمنائِهِ. وأمرَهُ بالتّجسّسِ عنْ أنبائِهِ. فما لبِثَ أنْ رجَعَ مُتَدَهْدِهاً. وقهْقَرَ مُقهْقِهاً. فقال له القاضي: مَهْيَمْ. يا أبا مرْيَمَ؟ فقال: لقدْ عايَنْتُ عجَباً. وسمعْتُ ما أنْشأ لي طرَباً. فقال لهُ: ماذا رأيتَ. وما الذي وعَيْتَ؟ قال: لمْ يزَلِ الشيخُ مذْ خرَجَ يُصفّقُ بيَدَيْهِ. ويخالِفُ بينَ رِجلَيْهِ. ويغرّدُ بمِلء شِدْقَيْهِ. ويقول:

كِدْتُ أصْلَى ببَلِيّهْ ..... منْ وَقاحٍ شَمّرِيّهْ

وأزورُ السّجْنَ لوْلا ..... حاكِمُ الإسكندريّهْ

فضحِكَ القاضي حتى هوَتْ دنِّيّتُهُ. وذوَتْ سكينَتُهُ. فلمّا فاء الى الوَقارِ. وعقّبَ الاستِغْراب بالاستِغْفارِ. قال: اللهُمّ بحُرمَةِ عِبادِكَ المقرّبينَ. حرّمْ حبْسي على المتأدّبينَ. ثمّ قال لذلِكَ الأمين:

عليّ بهِ. فانطلقَ مُجِدّاً بطلَبِه. ثمّ عادَ بعدَ لأيِهِ. مخبّراً بنأيِهِ. فقال لهُ القاضي: أمَا إنّهُ لوْ حضَرَ. لكُفيَ الحذرَ. ثمّ لأوْلَيْتُهُ ما هو به أوْلى. ولأرَيتُهُ أنّ الآخِرَةَ خيرٌ لهُ من الأولى. قال الحارثُ بنُ همّام: فلمّا رأيتُ صَغْوَ القاضي إليهِ. وفَوْتَ ثمرَةِ التّنبيهِ علَيْهِ. غَشِيَتني نَدامَةُ الفرَزْدَقِ حينَ أبانَ النّوارَ. والكُسَعيِّ لمّا استَبانَ النّهارَ.

الفصل الثالث

أعلام الكتاب في العصر العباسي

- ابن المقفع

- **مولده ونشأته :**

ولد عبد الله بن المقفع [١٠٩]عام ١٠٦هـ - ٧٢٤ م من أبوين فارسيين ، بخوزستان ، في قرية تسمى " جور " الفارسية ،والتي اشتهرت بالورد الجوري الذي ينسب إليها، وهي مدينة من أجمل المدن وأعمرها [١١٠]، وكان أبوه قد سماه " روزبه " ومعناه المبارك ، فنشأ وترعرع على دين والده "داذويه" الذي كان مجوسيًا ، فلما جاء إلى البصرة ولاه الحجاج بن يوسف الثقفي عندما كان واليًا على العراق وبلاد فارس خراج فارس ، فمد يده واحتجن من مال السلطان ، فضربه ضربًا مبرحًا حتى تقفعت يداه ، أي تشنجت ويبست ، فسمي ب " المقفع "[١١١]، ويبدو أنه ظل مجوسيًا مانويًا حتى مات ، ولما نزل البصرة جاور آل الأهتم من بني تميم ، أو أنه أُلحق بهم ولاء ، وكانوا من فصحاء العرب والمشهورين باللسن والخطابة والفصاحة .

وقد عني " داذويه " بتأديب ابنه"روزبه "وتعليمه منذ أن كان في بلاد فارس ، كما كان من حسن حظه أنه نزل البصرة مركز الثقافة العربية ، حيث علماء اللغة والأعراب ، والرواة والمدارس ، وكان بها سوق المربد الشهير بها وهو جامعة للأدباء والشعراء، فكانت الظروف مواتية ل" روزبه "ليتعلم اللغتين

---

(١٠٩)الفهرست ، ص ١٣٢ .

(١١٠)أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ص ٣١ وما بعدها .

(١١١)وفيات الأعيان وأبناء أيتام الزمان ، لابن خلكان ،ص ١٣٢ .

العربية والفارسية معًا ، فأما العربية فلأنه مولى لبني الأهتم ، ودفع دفعًا إلى ثور بن يزيد، وكان من أوثق الأعراب الذين وفدوا على البصرة للتعليم[١١٢] ، فكان يجلس إليه ويتعلم منه، حتى صحت سليقته، واستقامت عربيته، وتمكن منها أيما تمكن ، وأما الفارسية فلأن أبويه كانا يحرصان على مخاطبته بها وربطه بآدابها وفنونها، ولعلَّ هذا كان من أسباب عدم اعتناقه للإسلام في بداية حياته .

وهكذا نشأ ابن المقفع" روزبه "حريصًا على مخالطة الأعراب والدراسة على أيديهم، والاستماع إلى المدرسين في مساجد البصرة ، والمشاركة في مجتمعات المربد ، حيث يستمع إلى الشعراء، ويحاول قول الشهادتين.

عمل في ديوان الكتابة ، و كان كاتبًا للأمراء قبيل قيام الدولة العباسية ، فكتب أول ما كتب في العهد الأموي لعمر بن هبيرة في دواوينه على كرمان بفارس ، ثم لابنه يزيد بن عمر بن هبيرة [١١٣] .

وكان ابن المقفع آنذاك شابًا في العشرين من عمره أو يزيد ، وكان ذلك في زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . فلما قتل يزيد كتب لأخيه داوود ، وكانت هذه الوظيفة تغدق عليه الأموال ، واستمر كاتبًا ل داوود حتى آخر أيام حكمه،حيث قتل وقت إعلان قيام الدولة العباسية في الثالث عشر من ربيع الأول عام ١٣٢ هـ .وكان ابن المقفع قد رأى أنه لابد أن يبادر بالاتصال ببعض

---

(١١٢)الفهرست ،ص ١٣٢ .

(١١٣) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٠٥- ١٠٩ .

رجال الدولة الجديدة ، شأنه في ذلك شأن بقية الموالي من الفرس .فكتب بداية لعيسى بن علي بن العباس عم السفاح وذلك أيام ولايته على الأهواز عامي ١٣٢ هـ و ١٣٣ هـ ، وقد أسلم ابن المقفع على يدي عيسى بن علي فتسمى بعبد الله ، وتكنى بأبي محمد[١١٤] .

- **مقتله :**

حدث في عام ١٣٧ هـ أن خرج على المنصور عمه عبد الله بن علي، ودعا جماعة من الناس إلى مبايعته ، لأنه يرى أنه كان أحق بالخلافة ، لكن المنصور سير له جيشًا عليه أبو مسلم الخرساني ، فانتصر عليه وهزم جماعتة ، ففر عبد الله إلى البصرة لاجئًا إلى أخيه سليمان ، فأرسل المنصور في طلبه ، ولكن سليمان التمس الشفاعة لأخيه عبد الله ، فعفا عنه المنصور وأمنه ، فطلب عيسى إلى ابن المقفع كتابة نسخة الأمانة، فكتبها ووثقها، فقد ظن ابن المقفع أن العبارات القوية والمنتقاة بعناية ستكون حماية من الغدر، فأخطأ، ودفع حياته وحياة من كتب له ثمنًا لذلك في عصر قام على الغدر وقتل الوزراء، لذا فقد كانت نسخة الأمان هذه هي أحد الأسباب التي أدت إلى قتل ابن المقفع . وقد جاء فيها" ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته[١١٥] "

---

(١١٤)وفيات الأعيان وأبناء أيتام الزمان ، لابن خلكان ،١/ ١٥١ .

(١١٥)الوزراء والكتاب ، للجهشياري ، ص ١٠٩ .

فغضب المنصور حين قرأ الأمان ، وسأل عن كاتبه ، فقيل له : ابن المقفع ، فقال : أما أحد يكفينه ؟.ثم كتب إلى سفيان بن معاوية، وكان والي البصرة آنذاك، وصادف هذا أن سفيان كان يحمل على ابن المقفع ، لاستخفافه به، وتندره عليه وسخريته الدائمة منه ، فاستغل الفرصة فطلبه ، ولما حضر قيده، وأمر بتنور ، فأُسجر، ثم أمر بابن المقفع، وأخذ يقطعه عضوًا عضوًا، فيرمي به في التنور وذلك عام ١٤٢ أو ١٤٣ فكانت كلماته الأخيرة مخاطبًا سفيان : والله إنك لتقتلني فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قتل مائة مثلك لما وفوا بواحد [١١٦].

ويرى طه حسين أن كتاب الأمان لم يكن سببًا في قتله، وإنما آراء ابن المقفع وانتقاداته لسير الحكم في البلاد، وجعلها في رسالة موجهة للمنصور ، هي التي زادت من حقد المنصور عليه وضيقه به [١١٧] .

وهناك من يرى أن الزندقة التي رمي بها هي السبب في مقتله . ولكن وإن اختلف الباحثون في سبب مقتل ابن المقفع ، إلا أنهم اتفقوا على أن القاتل كان سفيان بن معاوية.

---

(١١٦) أمراء البيان ، ص٨٦ وما بعدها .

(١١٧)من حديث الشعر والنثر ، ص٤٢ ٠

- أخلاقه وثقافته :

وقد اشتهر ابن المقفع حتى قبل إسلامه بمتانة أخلاقه ، فكان كريمًا سخي اليد مضيافًا ، ولا عجب في ذلك ما دام أنه كان من أشراف أهل فارس، كما كان عطوفًا عاشقًا لمحامد الصفات ومكارمها من مروءة وحكمة ورصانة وسهولة في المخالقة والمعاشرة ، والإباء والترفع عن الدنايا ، كما أنه أوتي من الذكاء ونفاذ البصيرة ما جعله فذًا بين أقرانه، حتى قيل : لو يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولم يكن في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وفي بلاغته يقول صاحب الفهرست " : بلغاء الناس عشرة:

"عبد الله بن المقفع و عمارة بن حمزة و جبل بن يزيد و حجر بن محمد و محمد بن حجر و أنس بن أبي شيخ ، ومسعدة الهرير و ابن صريح و عبد الجبار بن عدي و أحمد بن يوسف " (١١٨) .

وأما عن ثقافته فقد حوى ابن المقفع العلم في زمانه من أطرافه ، فجمع بين ثقافتي العرب والعجم ، فقد كان يتقن اللغة الفارسية إتقانًا فريدًا ، لم يتوفر إلا للقليلين من بني قومه ، وحذق العربية وبرع فيها، فما زال القدماء يستشهدون بآرائه في الفصاحة والبلاغة. ولم يكن إتقان ابن المقفع للغات مجرد قراءة ومعرفة ، بل تعداه إلى الترجمة ، فهو أديب مترجم لغوي فيلسوف عالم بأسرار اللغات

(١١٨) الفهرست لابن النديم ، ص ١٤٠ .

التي عرفها ، كما أن حظه من اللغة اليونانية جعله من أوائل المترجمين لكتب أرسطو، حيث ترجم العديد منها في المنطق والجدل والقياس والمقولات [١١٩].

- **مؤلفاته وتراجمه :**

ترجم ابن المقفع العديد من الكتب ، وقام بتأليف الكثير من الكتب والرسائل التي تدور في الصداقة ، والحكم والسياسة ، والفلسفة والمنطق والأخلاق و السير.

والكتب التى ترجمها هي كما يذكرها صاحب الفهرست " : كتاب خداينامه في السير ، و كتاب آيين نامه في الآيين و كتاب كليلة ودمنة ، و كتاب مزدك ، و كتاب التاج في سيرة أنو شروان .

أما الكتب التى قام بتأليفها :

كتاب الأدب الكبير و كتاب الأدب الصغير و كتاب اليتيمة في الرسائل (الدرة اليتيمة) كتاب رسائله و كتاب جوامع كليلة ودمنة و كتاب رسالته في الصحابة .

---

(١١٩) تنوع الأداء البلاغي في أدب ابن المقفع : نوير بنت ناصر محمد عبد الله الثبيتي ، ص١٨-٢٠ .

- **أسلوبه ومنهجه :**

وقد اختط ابن المقفع لنفسه مذهبًا كتابيًا ، لاءم فيه بين المعنى والأسلوب ، ونوع تراكيبه وفقا لًحال المخاطبين ، واستطاع من خلاله أن يحدد به منهجه،وأن يشيعه في كتبه ، فضً لا عما عرف به في عصره ، حتى عده المتأخرون مدرسة من أهم مدارس النثر في العصر العباسي ، إذ كان يؤثر العناية بالمعنى ، مع توخي السهولة في اللفظ، والبعد عن وحشي الكلام وغريبه ، ثم يصب هذا كله في قالب "الإيجاز والإرسال [١٢٠] .

و يعد ابن المقفع رأس مدرسة في الكتابة، وصاحب أسلوب كتابي متميز يقوم على الترسل، والوضوح، والسهولة، والبعد عن غريب الألفاظ، والتناسب بين الألفاظ والمعاني. وكان ينهى عن استخدام الألفاظ الغريبة، ويدعو إلى استخدام الألفاظ السهلة. ويعرف أسلوبه هذا بالسهل الممتنع.

وقد كان أسلوبه مطبوعا بعيدا عن الصنعة والتكلف متأثرا بأسلوب أستاذه عبد الحميد، وثقافته التي جمعت بين العربية والفارسية، وبالواقع الذي كان يصوره. ومن الممكن أن نتبين هذه السمات الأسلوبية واضحة من خلال النظر في كتابات ابن المقفع وقد ظهر ذلك جليا في كتبه ؛ فالأدب الصغير يهدف إلى صقل العقول ، وإحياء التفكير ، وإقامة التدبير ، والتوجيه لمحامد الأمور ، ومكارم الأخلاق ، ويتوجه به لمن هم في مقتبل العمر. لذا غلب عليه

---

(١٢٠)بلاغة الكتاب في العصر العباسي ،دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب: د.محمد نبيه حجاب ، ص ١٣٤.

في آداء معانيه أساليب تتناسب مع هذا التوجه منها : التوشيع ، الجمع مع التقسيم ، التفريق، لأن هذه من أهم أساليب التشويق المناسبة في مجال التعليم والتوجيه ، حيث يأتي بنصائح مجموعة ، ثم يفرق فيما بينها تفريقًا يكشف عن وجوه التمايز بينها ، ويقسمها تقسيما يًستوفيها ، فلا يترك في المعنى زيادة لمستزيد . كما يتخلل أسلوبه الطباقات والمقابلات التي تعكس المفارقات عند حديثه عن تفاوت الناس في الأخلاق ، وتصادم القيم والمبادئ [١٢١].

أما الأدب الكبير فيرتقي إلى أصول الأدب وأسس الأخلاق ، ويتوجه به إلى خواص الناس ، وهؤلاء لا حاجة بهم إلى أساليب التلطف والتشويق ، كما هو الحال في الأدب الصغير ، ولذلك يلاحظ فيه كثرة أسلوب الأمر بصيغه المتعددة ، وأسلوب النهي مع تعدد الأغراض الكامنة وراء كل منهما في هذا الكتاب ، وكثيرًا ما كان يتبع الأمر والنهي بالتعليل الذي يبرره ويقربه ويقنع ، وقد جاءت أكثر هذه التعليلات مقرونة بالفاء التي تصل بسرعة بين الأمر وتعليله ، وكأنهما شيء واحد . [١٢٢]

وفي رسالة الصحابة يلاحظ خلوها من الأوامر والنواهي ، لتوجه الخطاب فيها إلى أصحاب الكلمة والولاة ، وإن كان يقدم فيها الأساليب البديلة التي تقوم مقام الأمر والنهي. أما كليلة ودمنة فإن التوجه الفكري فيه كان بقصد جعله رياضة لعقول الخواص، وحملهم على طاعة أولي الأمر ، فكانت هذه هي الغاية

---

(١٢١) تنوع الأداء البلاغي في أدب ابن المقفع : نوير بنت ناصر محمد عبد الله الثبيتي ، ص٧ .

(١٢٢) السابق ، ص ٧– ٨ .

الأساسية التي طلب من أجلها الملك (دبشليم)من الفيلسوف (بيدبا) تأليف هذا الكتاب ، عسى أن يجد فيه عامة الناس ما يحتاجون إليه من سياسة أنفسهم في أمور دينهم ودنياهم[١٢٣].

ولقد كثر الذين كتبوا عن ابن المقفع و تنوعت آراؤهم ونظراتهم ، وإن كان لبعضهم تناولات سريعة وتأملات خاطفة ، إلا أن البعض الآخر أفرد له الكتب والمؤلفات ، فمنهم : د . فكتور الكك في كتابه : (ابن المقفع أديب العقل) ، ود. عبداللطيف حمزة في كتابه(ابن المقفع)، و د . عبد الأمير شمس الدين في كتابه (الفكر التربوي عند ابن المقفع و والجاحظ وعبد الحميد الكاتب) ، وغيرها من الكتب المستقلة بالبحث فيه ، ثم تتابعت الدراسات الجامعية حول كتابات ابن المقفع .

ومهما يكن فقد قامت حول حياة ابن المقفع آراء متناقضة كثيرة بين الدارسين والباحثين ، فمنهم من جعله زنديقًا ملحدًا ومتعصبًا لفارسيته ؛ لأنه ما أراد من هذه التراجم إلا التفاخر بفارسيته ومذهبه المانوي ، وأن إسلامه لم يكن إلا نفاقًا للوصول إلى السلطان لبث آرائه .

ومنهم من رأى فيه الرجل المحب للإصلاح الاجتماعي والسياسي ؛ ولهذا ترجم هذه الآثار لتكون مادة للعبرة والموعظة بين يدي الحكام، وهو الذي

---

(١٢٣)تنوع الأداء البلاغي في أدب ابن المقفع : ص٨ .

اتصف بأخلاق كريمة قربته من درجة المصلحين ، فقد تمسك بالفضيلة ونشدها، ومن ثم سما بخلقه ونفسه درجات نحو الكمال حين أسلم [١٢٤].

(١٢٤) السابق ، ص٢١.

- **نماذج من مؤلفات ابن المقفع :**

١-من كتاب الأدب الصغير :

قال ابن المقفع [١٢٥]:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ حَاجَةً، وَلِكُلِّ حَاجَةٍ غَايَةً، وَلِكُلِّ غَايَةٍ سَبِيلاً. وَاللهُ وَقَّتَ لِلْأُمُورِ أَقْدَارَهَا، وَهَيَّأَ إِلَى الْغَايَاتِ سُبُلَهَا، وَسَبَّبَ الْحَاجَاتِ بِبَلاَغِهَا. فَغَايَةُ النَّاسِ وَحَاجَاتُهُمْ صَلاَحُ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَالسَّبِيلُ إِلَى دَرْكِهَا الْعَقْلُ الصَّحِيحُ .

وَأَمَارَةُ صِحَّةِ الْعَقْلِ: اخْتِيَارُ الْأُمُورِ بِالْبَصَرِ، وَتَنْفِيذُ الْبَصَرِ بِالْعَزْمِ. وَلِلْعُقُولِ سَجِيَّاتٌ وَغَرَائِزُ بِهَا تَقْبَلُ الْأَدَبَ، وَبِالْأَدَبِ تَنْمَى الْعُقُولُ وَتَزْكُو. فَكَمَا أَنَّ الْحَبَّةَ الْمَدْفُونَةَ فِي الْأَرْضِ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَخْلَعَ يَبَسَهَا وَتُظْهِرَ قُوَّتَهَا وَتَطْلُعَ فَوْقَ الْأَرْضِ بِزَهْرَتِهَا وَرَيْعِهَا وَنَضْرَتِهَا وَنَمَائِهَا إِلاَّ بِمَعُونَةِ الْمَاءِ الَّذِي يَغُورُ إِلَيْهَا فِي مُسْتَوْدَعِهَا فَيُذْهِبَ عَنْهَا أَذَى الْيَبَسِ وَالْمَوْتِ، وَيُحْدِثَ لَهَا بِإِذْنِ اللهِ الْقُوَّةَ وَالْحَيَاةَ ، فَكَذَلِكَ سَلِيقَةُ الْعَقْلِ مَكْنُونَةٌ فِي مَغْرِزِهَا مِنَ الْقَلْبِ، لاَ قُوَّةَ لَهَا وَلاَ حَيَاةَ بِهَا وَلاَ مَنْفَعَةَ عِنْدَهَا حَتَّى يَعْتَمِلَهَا الْأَدَبُ الَّذِي هُوَ ثِمَارُهَا وَحَيَاتُهَا وَلِقَاحُهَا .

---

(١٢٥) الأدب الصغير ، ص٢١-٢٤ .

وَجُلُّ الْأَدَبِ بِالْمَنْطِقِ، وَجُلُّ الْمَنْطِقِ بِالتَّعَلُّمِ، لَيْسَ مِنْهُ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ مُعْجَمِهِ، وَلاَ اسْمٌ مِنْ أَنْوَاعِ أَسْمَائِهِ إِلاَّ وَهُوَ مَرْوِيٌّ مُتَعَلَّمٌ مَأْخُوذٌ عَنْ إِمَامٍ سَابِقٍ مِنْ كَلاَمٍ أَوْ كِتَابٍ؛ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَبْتَدِعُوا أُصُولَهَا، وَلَمْ يَأْتِهِمْ عِلْمُهَا إِلاَّ مِنْ قِبَلِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ.

فَإِذَا خَرَجَ النَّاسُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَمَلٌ أَصِيلٌ وَأَنْ يَقُولُوا قَوْلاً بَدِيعًا؛ فَلْيَعْلَمِ الْوَاصِفُونَ الْمُخْبِرُونَ أَنَّ أَحَدَهُمْ – وَإِنْ أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ – لَيْسَ زَائِدًا عَلَى أَنْ يَكُونَ كَصَاحِبِ فُصُوصٍ وَجَدَ يَاقُوتًا وَزَبَرْجَدًا وَمَرْجَانًا ، فَنَظَمَهُ قَلاَئِدَ وَسُمُوطًا وَأَكَالِيلَ ، وَوَضَعَ كُلَّ فَصٍّ مَوْضِعَهُ ، وَجَمَعَ إِلَى كُلِّ لَوْنٍ شِبْهَهُ وَمَا يَزِيدُهُ بِذَلِكَ حُسْنًا، فَسُمِّيَ بِذَلِكَ صَانِعًا رَفِيقًا. وَكَصَاغَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ صَنَعُوا مِنْهَا مَا يُعْجِبُ النَّاسَ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْآنِيَةِ. وَكَالنَّحْلِ وَجَدَتْ ثَمَرَاتٍ أَخْرَجَهَا اللهُ طَيِّبَةً، وَسَلَكَتْ سُبُلاً جَعَلَهَا اللهُ ذُلُلاً ؛ فَصَارَ ذَلِكَ شِفَاءً وَطَعَامًا وَشَرَابًا مَنْسُوبًا إِلَيْهَا، مَذْكُورًا بِهِ أَمْرُهَا وَصَنْعَتُهَا.

فَمَنْ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ كَلاَمٌ يَسْتَحْسِنُهُ أَوْ يَسْتَحْسِنُ مِنْهُ، فَلاَ يَعْجَبَنَّ إِعْجَابَ الْمُخْتَرِعِ الْمُبْتَدِعِ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا اجْتَنَاهُ كَمَا وَصَفْنَا. وَمَنْ أَخَذَ كَلاَمًا حَسَنًا عَنْ غَيْرِهِ فَتَكَلَّمَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَعَلَى وَجْهِهِ، فَلاَ تَرَيَنَّ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ضُؤُولَةً ؛ فَإِنَّ مَنْ أُعِينَ عَلَى حِفْظِ كَلاَمِ الْمُصِيبِينَ، وَهُدِيَ لِلاقْتِدَاءِ بِالصَّالِحِينَ، وَوُفِّقَ لِلْأَخْذِ عَنِ الْحُكَمَاءِ، فَلاَ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَزْدَادَ؛ فَقَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ، وَلَيْسَ بِنَاقِصِهِ فِي رَأْيِهِ وَلاَ غَامِطِهِ مِنْ حَقِّهِ أَنْ لاَ يَكُونَ هُوَ اسْتَحْدَثَ ذَلِكَ وَسَبَقَ إِلَيْهِ .

وَإِنَّمَا إِحْيَاءُ الْعَقْلِ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ وَيَسْتَحْكِمُ خِصَالٌ سَبْعٌ: الْإِيثَارُ بِالْمَحَبَّةِ، وَالْمُبَالَغَةُ فِي الطَّلَبِ، وَالتَّثَبُّتُ فِي الاخْتِيَارِ، وَالاعْتِقَادُ لِلْخَيْرِ، وَحُسْنُ الْوَعْيِّ ، وَالتَّعَهُّدُ لِمَا اخْتِيرَ وَاعْتُقِدَ، وَوَضْعُ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ قَوْلاً وَعَمَلاً .

أَمَّا الْمَحَبَّةُ: فَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْمَرْءُ مَبْلَغَ الْفَضْلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حِينَ يُؤْثِرُ بِمَحَبَّتِهِ؛ فَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ أَمْرَأَ وَلاَ أَحْلَى عِنْدَهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الطَّلَبُ: فَإِنَّ النَّاسَ لاَ يُغْنِيهِمْ حُبُّهُمْ مَا يُحِبُّونَ وَهَوَاهُمْ مَا يَهْوَوْنَ عَنْ طَلَبِهِ وَابْتِغَائِهِ، وَلاَ يُدْرِكُ لَهُمْ بُغْيَتَهُمْ نَفَاسَتُهَا فِي أَنْفُسِهِمْ دُونَ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ .

وَأَمَّا التَّثَبُّتُ وَالتَّخَيُّرُ: فَإِنَّ الطَّلَبَ لاَ يَنْفَعُ إِلاَّ مَعَهُ وَبِهِ. فَكَمْ مِنْ طَالِبِ رُشْدٍ وَجَدَهُ وَالْغَيَّ مَعًا، فَاصْطَفَى مِنْهُمَا الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ، وَأَلْغَى الَّذِي إِلَيْهِ سَعَى.

فَإِذَا كَانَ الطَّالِبُ يَحْوِي غَيْرَ مَا يُرِيدُ وَهُوَ لاَ يَشُكُّ بِالظَّفَرِ؛ فَمَا أَحَقَّهُ بِشِدَّةِ التَّبْيينِ وَحُسْنِ الابْتِغَاءِ! وَأَمَّا اعْتِقَادُ الشَّيْءِ بَعْدَ اسْتِبَانَتِهِ: فَهُوَ مَا يُطْلَبُ مِنْ إِحْرَازِ الْفَضْلِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ .

٢ – من كتاب كليلة ودمنة :

أ–باب (الناسك وابن عرس) [١٢٦]:

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب قال الفيلسوف: إنه من لم يكن في أمره متثبتاً لم يزل نادماً ويصير أمره إلى ما صار إليه الناسك من قتل ابن عرس وقد كان له ودوداً. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن ناسكاً من النساك بأرض جرجان وكانت له امرأة جميلة، فمكثا زمناً لم يرزقا ولداً ثم حملت منه بعد الإياس فسرت المرأة وسر الناسك بذلك فحمد الله تعالى وسأله أن يكون الحمل ذكراً وقال لزوجته: أبشري فإني أرجو أن يكون غلاماً لنا فيه منافع، وقرة عين، أختار له أحسن الأسماء وأحضر له سائر الأدباء. فقالت المرأة: ما يحملك أيها الرجل على أن تتكلم بما لا تدري أيكون أم لا؟ ومن فعل ذلك أصابه ما أصاب الناسك الذي أراق على رأسه السمن والعسل.

قال لها: وكيف ذلك؟ قالت: زعموا أن ناسكاً كان يجري عليه من بيت رجل تاجر، في كل يوم رزق من السمن والعسل وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويجعله في جرة، فيعلقها في وتد في ناحية البيت حتى أمتلأت فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره والعكاز في يده والجرة معلقة على

---

(١٢٦) كليلة ودمنة ، ص٢٤٠–٢٤٤ .

رأسه، تفكّر في غلاء السمن والعسل، فقال: سأبيع ما في هذه الجرة بدينار وأشتري به عشرة أعنز، فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطناً، ولا تلبث قليلاً حتى تصير غنماً كثيرة إذا ولت أولادها، ثم حرر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز، فقال: أنا أشتري بها مائة من البقر، وأشترى أرضاً وبذراً، وأستأجر أكرة وأزرع على الثيران، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها فلا يأتي على خمس سنين ألا وقد أصبت من الزرع مالاً كثيراً، فأبني بيتاً فاخراً وأشتري إماء وعبيد.

وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن، ثم تأتي بغلام سري نجيب، فأختار له أحسن الأسماء، فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه وأشدد عليه في ذلك، فإن يقبل مني، وإلا ضربته بهذه العكازة وأشار إلى الجرة فكسرها، فسال ما كان فيها على وجهه وإنما ضربت لك هذا المثل لكي لا تعجل بذكر ما لا ينبغي ذكره، وما لا تدري أيصح أم لا يصح فاتعظ الناسك بما حكت زوجته.

ثم إن المرأة ولدت غلاماً جميلاً ففرح به أبوه وبعد أيام حان لها أن تتطهر فقالت المرأة للناسك: اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام فأغتسل وأعود ثم إنها انطلقت إلى الحمام، وخلفت زوجها والغلام فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه ولم يجد من يخلفه عند ابنه غير ابن عرس داجن عنده كان قد رباه صغيراً فهو عنده عديل ولده فتركه الناسك عند الصبي وأغلق عليهما البيت وذهب مع الرسول.

فخرج من بعض أحجار البيت حية سوداء فدنت من الغلام فضربها ابن عرس ثم وثب عليها فقتلها ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها ثم جاء الناسك وفتح الباب فالتقاه ابن عرس كالمبشر له بما صنع من قتل الحية. فلما رآه ملوثاً بالدم وهو مذعور طار عقله وظن أنه قد خنق ولده ولم يتثبت في أمره ولم يتروَ فيه حتى يعلم حقيقة الحال ويعمل بغير ما يظن من ذلك ولكن عجل أبن عرس وضربه بعكازه كانت في يده على أم رأسه فمات.

ودخل الناسك فرأى الغلام سليماً حياً وعنده أسود مقطع. فلما عرف القصة وتبين له سوء فعله في العجلة لطم على رأسه. وقال: ليني لم أرزق هذا الولد ولم أغدر هذا الغدر ودخلت امرأته فوجدته على تلك الحال فقالت له: ماشأنك فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له فقالت: هذه ثمرة العجلة فهذا مثل من لا يتثبت في أمره بل يفعل أغراضه بالسرعة والعجلة.

- باب (الأسد والثور) [١٢٧]:

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، وهو رأس البراهمة: اضرب لنا مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء. قال بيدبا: إذا ابتلي المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال، لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا. ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دستاوند رجلٌ شيخٌ وكان له ثلاثة بنين. فلما بلغوا أشدهم أسرفوا في مال أبيهم؛ ولم يكونوا احترفوا حرفةً يكسبون لأنفسهم بها خيراً.

فلامهم أبوهم؛ ووعظهم على سوء فعلهم؛ وكان من قوله لهم: يا بني إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء: أما الثلاثة التي يطلب، فالسعة في الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة؛ وأما الأربعة التي يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه، ثم استثماره، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان، فيعود عليه نفعه في الآخرة. فمن ضيع شيئاً من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته: لأنه إن لم يكتسب، لم يكن مالٌ يعيش به؛ وإن هو كان ذا مالٍ واكتسابٍ ثم لم يحسن القيام عليه، أوشك المال أن يفنى ويبقى معدماً؛ وإن هو وضعه ولم يستثمره، لم تنعه قلة الإنفاق من

---

(١٢٧) كليلة ودمنة ، ص٩٢-٢٤٤ .

سرعة الذهاب: كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا غبار الميل ثم هو مع ذلك سريعٌ فناؤه. وإن أنفقه في غير وجهه، ووضعه في غير موضعه، وأخطأ في مواضع استحقاقه، صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له؛ثم لا يمنع ذلك ماله من التلف بالحوادث والعلل التي تجري عليه؛ كمحبس الماء الذي لا تزال المياه تنصب فيه، فإن لم يكن له مخرجٌ ومفيضٌ ومتنفسٌ يخرج الماء منه بقدر ما ينبغي، خرب وسال ونز من نواحٍ كثيرةٍ، وربما انبثق البثق العظيم فذهب الماء ضياعاً. ثم أنبني الشيخ اتعظوا بقول أبيهم وأخذوا به وعلموا أن فيه الخير وعولوا عليه.

فانطلق أكبرهم نحو أرضٍ يقال لها ميون؛ فأتى في طريقه على مكانٍ فيه وحلٌ كثيرٌ؛ وكان معه عجلةٌ يجرها ثوران يقال لأحدهما شتربة وللآخر بندبة، فوحل شتربة في ذلك المكان، فعالجه الرجل وأصحابه حتى بلغ منهم الجهد، فلم يقدروا على إخراجه؛ فذهب الرجل وخلف عنده رجلاً يشارفه: لعل الوحل ينشف فيتبعه بالثور.

فلما بات الرجل بذلك المكان، تبرم به واستوحش؛ فترك الثور والتحق بصاحبه، فأخبره أن الثور قد مات؛ وقال له: إن الإنسان إذا انقضت مدته وحانت منيته فهو وإن اجتهد في التوقي من الأمور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئاً؛ وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وبالاً عليه.

كالذي قيل: إن رجلاً سلك مفازةً فيها خوفٌ من السباع؛ وكان الرجل خبيراً بوعث تلك الأرض وخوفها؛ فلما سار غير بعيد اعترض له ذئبٌ من أحد الذئاب وأضراها؛ فلما رأى الرجل أن الذئب قاصد نحوه خاف منه، ونظر يميناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرز فيه من الذئب فلم ير إلا قريةً خلف واد؛ ورأى الذئب قد أدركه، فألقى نفسه في الماء، وهو لا يحسن السباحة، وكاد يغرق، لولا أن بصر به قومٌ من أهل القرية؛ فتواقعوا لإخراجه فأخرجوه، وقد أشرف على الهلاك؛ فلما حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة الذئب رأى على عدوة الوادي بيتاً مفرداً؛ فقال:

أدخل هذا البيت فأستريح فيه. فلما دخله وجد جماعةً من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجلٍ من التجار. وهم يقتسمون ماله؛ ويريدون قتله؛ فلما رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية؛ فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء، إذ سقط الحائط عليه فمات. قال التاجر: صدقت؛ قد بلغني هذا الحديث.

وأما الثور فإنه خلص من مكانه وانبعث. فلم يزل في مرجٍ مخصبٍ كثير الماء والكلأ؛ فلما سمن وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالخوار. وكان قريباً منه أجمةٌ فيها أسدٌ عظيمٌ؛ وهو ملك تلك الناحية، ومعه سباعٌ كثيرةٌ وذئابٌ وبنات آوى وثعالب وفودٌ ونمورٌ؛ وكان هذا الأسد منفرداً برأيه دون أخذٍ برأي أحدٍ من أصحابه. فلما سمع خوار الثور، ولم يكن رأى ثوراً قط، ولا سمع

خواره؛ لأنه كان مقيماً مكانه لا يبرح ولا ينشط؛ بل يؤتى برزقه كل يومٍ على يد جنده.

وكان فيمن معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة؛ وكانا ذوي دهاء وعلمٍ وأدبٍ. فقال دمنة لأخيه كليلة: يا أخي ما شأن الأسد مقيماً مكانه لا يبرح ولا ينشط؟

قال له كليلة: ما شأنك أنت والمسألة عن هذا؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحب وتاركين لما يكره؛ ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم. فأمسك عن هذا، واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أن قرداً رأى نجاراً يشق خشبة بين وتدين، وهو راكب عليها؛ فأعجبه ذلك. ثم إن النجار ذهب لبعض شأنه. فقام القرد؛ وتكلف ما ليس من شغله، فركب الخشبة، وجعل ظهره قبل الوتد، ووجهه قبل الخشبة؛ فتدلى ذنبه في الشق، ونزع الوتد فلزم الشق عليه فخر مغشياً عليه. فكان ما لقي من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة.

قال دمنة: قد سمعت ما ذكرت، ولكن اعلم أن كل من يدنو من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه، وإنما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت العدو. وإن من الناس من لا مروءة له؛ وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون؛ كالكلب الذي يصيب عظماً يابساً فيفرح به.

وأما أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل، ولا يرضون به، دون أن تسموا به نفوسهم إلى ما هم أهلٌ له، وهو أيضاً لهم أهلٌ؛ كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير، ألا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه. حتى ترمى له الكسرة، وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتى يمسح ويتملق له. فمن عاش ذا مالٍ وكان ذا فضلٍ وإفضالٍ على أهله وإخوانه فهو وإن قل عمره طويل العمر. ومن كان في عيشه ضيقٌ وقلةٌ وإمساكٌ على نفسه وذويه فالمقبور أحيا منه. ومن عمل لبطنه وقنع وترك ما سوى ذلك عد من البهائم.

قال كليلة: قد فهمت ما قلت؛ فراجع عقلك، واعلم أن لكل إنسانٍ منزلةً وقدراً. فإن كان في منزلته التي هو فيها متماسكاً، كان حقيقاً أن يقنع. وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التي نحن عليها. قال دمنة: إن المنازل متنازعةٌ مشتركةٌ على قدر المروءة؛ فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة؛ ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة.

إن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديدٌ، والانحطاط منه مهينٌ؛ كالحجر الثقيل: رفعه من الأرض إلى العاتق عسرٌ، ووضعه إلى الأرض هينٌ. فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا.

- الجاحظ (١٥٠ – ٢٥٥هـ):

- **مولده ونشأته :**

أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ ، البصري العالم المشهور؛ صاحب التصانيف في كل فن، وإليه تنتسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة، وكان تلميذ أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور وإنما قيل له " الجاحظ " لأن عينيه كانتا جاحظتين (١٢٨) ، ولد في البصرة، وهي يومئذ حاضرة الدنيا وقبلة الإسلام، وامتدت حياته الحافلة المعطاء بين منتصف القرن الهجري الثاني ومنتصف القرن الهجري الثالث، وهي فترة من أزهى فترات العصر الذهبي للخلافة العباسية عامة والبصرة بخاصة. فقد كانت الحياة الثقافية في البصرة في أوج ازدهارها ونمائها(١٢٩) .

بدأ الجاحظ حياته فقيراً معدماً اضطرته أمه أن يزاوج بين التَعَلُّم والارتزاق فكان بعد انقضاء الدرس يذهب إلى سوق البصرة ليبيع سمكاً صغيراً ، هزيلاً كبائعه ، فقيراً بين الأغنياء ،وفي جو تعقدت فيه مظاهر الحياة العقلية في البصرة وكثرت التيارات الأدبية والعلمية يمضي الجاحظ دون أن

---

(١٢٨) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٣/٤٧٠-٤٧١ .

(١٢٩)الجاحظ والبصرة .. النبع والمصبّ ، مجلة الاتحاد ، الخميس ٢٧ يونيو ٢٠١٣ .

يعفيه فقره لتلقي مبادئ القراءة والكتابة ويتعلم ما كانت الكتاتيب تقوم إذ ذاك بتعليمه لصبيان الطبقة الدنيا(١٣٠).

وقد أشبعت سوق الوراقين نَهم الجاحظ إلى القراءة والاطلاع وأتاحت لهم فرصة التزود بثقافة منوعة خصبة ، ووقف بفضلها على كثير مما ترجم إلى العربية من اللغات الأخرى، وقد تتبع الدكتور طه الحاجري مسيرة الجاحظ تتبعا دقيقا في أطوراها المختلفة في البصرة وبغداد وسامراء، وربط بين ظروف الجاحظ في كل طور من تلك الأطوار وبين ما ألفه فيه من كتب ورسائل.

لقد اتخذ الجاحظ من الكتاب أستاذا يصحبه حيثما ذهب يقبل عليه إقبال من أحسَّ الحرمان، يلتمس فيه ما فاته في غيره من لهفة وإلحاح. ولعل حياته المكدودة المضطربة في أوائل نشأته كانت من العوامل الخطيرة في تكوين شخصيته، فانصرف إلى دكاكين الوراقين ليجد فيها ألوانا مختلفة من المعرفة وصورا عدة من الحياة العقلية والأدبية تغريه بالاستغراق فيها وتجعل عقله الناشئ يتفتح ويتوثب فقد حدث أبو هفان أنه قال: "لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها

(١٣٠)الجاحظ : حياته وآثاره ، طه الحاجري ، ص٣٥ .

للنظر". وقال عنه إسماعيل بن أسحق القاضي: "فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتبا أو ينفضها" (١٣١) .

كما أن هذا الحب للكتاب جعله يؤثر صناعة التأليف التي جعلها وكده وهمه.. كما هيأت له بعض الظروف لاحقا أن يكون من أكثر علماء عصره إحاطة بالمعارف نذكر منها شأن الدولة مع العلماء والمؤلفين، فقد ورد في عن أبي عثمان المازني: "ثم انصرفت إلى البصرة فكان الوالي يجري عليّ المائة دينار في كل شهر حتى مات الواثق" (١٣٢) ، وقد وجد الجاحظ في الفتح بن خاقان العماد الذي يعتمد عليه في حياته، والرعاية الأدبية التي تكفل له أن يعيش هادئ البال مطمئن الخاطر منصرفا إلى الأدب والكتابة والتأليف .

وقد آثر الجاحظ العيش في رحاب الفكر مستشرقا آفاق المعرفة دائبا على العطاء ، ثم شاخ وأدركه الهرم وألح عليه المرض ، وقد شكا المرض وآلامه ، ومن هذا القبيل ما أورده أبو على القالي فى قوله " وحدثنا أبو معاذ الخولى المتطلب قال : دخلنا يوماً بسر من راى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج ، فأما أخذنا مجلسنا أتى رسول المتوكل فيه ، فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولون حائل ولعاب سائل ؟ ثم اقبل علينا

---

(١٣١) معجم الأدباء ٥٦/٦ .

(١٣٢) السابق ، ١١٩/٧ .

وقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس والشق الأخر يمر به الذباب فيغوث (١٣٣).

- **ثقافته ومذهبه :**

إن الجاحظ قد نهل من مصادر مختلفة؛ حصرناها في القرآن والحديث والشعر العربي، وكتب الهند والفرس واليونان، وكذلك نهل من المنازعات الكلامية التي نشطت بين الفرق في عصره، لاسيما فرقة المعتزلة التي ينتمي إليها. وأضاف الجاحظ إلى كل هذا؛ خبراته الشخصية التي تتمثل في الإستماع، والمشاهدة العينية التي تعتمد المراقبة والملاحظة، والتجربة والإختبار، وكون من "الكل" مذهبا متناسقا .

أما مذهب الجاحظ ، فهو مذهب المعتزلة ، حيث استمد منهم منهجه العقلي، ونزعته العقلانية التي صاحبته مفسرا كما صاحبته محدثا، وصاحبته متكلما وفيلسوفا طبيعيا ، بل صاحبته أديبا بلاغيا؛ وذلك استمرارا منه لعقلانية "العلاف" و"النظام"، واقتداء منه بواقعية "بشر" و"ثمامة".(١٣٤)

ففي المنحى الكلامي لم يشذ عن المبادئ الخمسة الأساسية التي وضعها المعتزلة، والجاحظ يذكر المعتزلة باسم "أصحابنا ، فهو لا يصرح بانتمائه إليهم فحسب، بل إنه يقف موقفا عدائيا من سائر الفرق ولا يستثني منها إلا المعتزلة ، ورغم هذا فإنه كان ينتقي من أفكارهم ما وجد منها مقنعا،

---

(١٣٣)تاريخ دمشق: ابن عساكر٤٥/٤٤٥ .

(١٣٤)مكانة العقل في فلسفة الجاحظ : عبد المجيد الجوزي ، ص١٠٦ .

ويخالف ما عداها بجرأة وسخرية منقطعتي النظير، وتفرد بآراء له خاصة، اختلف بها عن فرقته.أما في المنحى الطبيعي، فقد كان الجاحظ يبحث في الطبيعة محاولا الكشف عن القوانين المبثوثة فيها، وذلك على غرار رجال المعتزلة أمثال "ثمامة" و"معمر" و"النظام"، والذين حاولوا قبله عدة محاولات في دراسة عالم الطبيعة أو العالم المادي بوجه عام(١٣٥).

وقد تميزت ثقافة الجاحظ بمظهرين رئيسين هما (١٣٦):

- المظهر الأول : يتمثل في تناول الموضوعات التي تناولها في أعماله ، فهو تحدث عن العلوم الطبيعية والكونية ، والظواهر البيولوجية ، كما درس مسائل العلوم العقلية والنقلية من كلام و تفسير وأدب ونقد واجتماع وفلسفة وعلم نفس وغير ذلك ، مما جعل دارسيه يعدونه أكبر كاتب موسوعي في تاريخ العربية.
- المظهر الثاني : كان الجاحظ يتمتع بشخصية فكرية ذات استقلالية فريدة من نوعها في عصره لا يتحكم في هذه الشخصية إلا نزوعه الشخصي وهدفه الذاتي ، وإن كانت النزعة النفعية في حياة الجاحظ قد غيرت مسار هذه الاستقلالية إلى ما يشبه التبعية الفكرية في بعض الأمور .
- **أسلوبه ومنهجه :**

---

(١٣٥) مكانة العقل في فلسفة الجاحظ : ص١٠٦ .

(١٣٦)صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء للجاحظ : علاء الدين رمضان ، مجلة جذور ، مج ١٤ ، سبتمبر ٢٠٠٣ ، ص ٣٥٦

وأسلوب الجاحظ هو أسلوب الازدواج الذي عرف به، إذ هو الذي أعد بحق لشيوع أسلوب جديد في الكتابة هو أسلوب الازدواج، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق في صفوف متقابلة، دون أن تتحد نهاياتها على نحو ما هو معروف في السجع، هي تتقابل وتتعادل صوتيًا، ولكن دون أن تحقق التوازن الصوتي المألوف في السجع، ومع ذلك تحقق ضروبًا من الإيقاع (١٣٧).

أما عبارة الجاحظ فهي متينة السبك، جزلة اللفظ، محكمة الربط، وثيقة الحلقات، وكان ينهج في انتقاء ألفاظه منهجًا وسطًا؛ فلا يستخدم اللفظ الغريب، ولا العامي المبتذل، وقد صرح بذلك في قوله: « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا، وساقطًا سوقيًا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا »(١٣٨).

وقد عرف الجاحظ في مؤلفاته بجنوحه إلى الاستطراد وبعدم التزامه بالبقاء في فلك موضوعه المحدد ، أو تقيده بإطار بحثه المعالج فكان ينتقل أحيانا داخل الموضوع الأساسي إلى موضوعات أخرى ليست وثيقة الاتصال بما هو فى صدده ، وأكثر ما يتجلى الاستطراد فى كتابيه الكبيرين ، كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين .

---

(١٣٧)العصر العباسي الثاني :د/ شوقي ضيف، ص :٥٩٥

(١٣٨)البيان والتبيين :للجاحظ، ١/١٤٤

ولعل الجاحظ كان أول من اتخذ التأليف صناعة له " ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظي نمطا جديداً في التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، ويتجه إلى جمهرة القراء لا الى طائفة خاصة منهم وقد حرص الجاحظ إبلاء هذه الناحية ما هي جديرة من الاهتمام إذ قال : " وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معاينة ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو ، ويجعله عن غريب الأعراب ووحشي الكلام " **(١٣٩)**.

- **كتبه ومؤلفاته :**

وقد زادت كتبه على مائة وسبعين كتابا ، ويقول المسعودي أنه: " لا يعلم أحدٌ من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه" (١٤٠) ، ورجح الأستاذ عبد السلام هارون كتب الجاحظ عن زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا في ألوان شتى من المعرفة رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة ببغداد سبط ابن الجوزي، المتوفى سنة ٦٥٤هـ، إلا أن هذه الكتب تعرضت للضياع بعد أن عصفت بها أعاصير الخلاف المذهبي، وإلى الخمود الذهني وهبوط الهمم والفوضى السياسية التي منيت بها الأمم الإسلامية في مسائها الأول.

ولعل أشهر مؤلفاته : كتاب (الحيوان) ، وكتاب (البيان والتبيين)، وكتاب (سحر البيان)، وكتاب (التاج) ويسمى أخلاق الملوك ، وكتاب

---

(١٣٩) الحيوان ، ١/٦١-٦٢ .

(١٤٠) مروج الذهب ، ٤/١٩٥ .

(البخلاء) ، وله رسائل كثيرة تداخلت واختلطت عنواناتها ، فكان ذلك سبباً في اختلاف العلماء في عدد مؤلفاته التي كانت سجلا للتراث العربي الإسلامي تحدث فيها بأسلوب مجدد عن طبقات المجتمع وأصنافه المختلفة عن العرب والعجم والمسلمين وأهل الأديان الأخرى ، وعن الأشراف والعلماء واللصوص والمتسولين والمكدين والصيارفة وملاك البيوت والمستأجرين ، وعن الحياة الأسرية والعلاقات الروحية والحرائر والجواري والمولدات والقيان، ومجالس الشرب وأنواعه والسكارى وماكان يعتريهم من السكر على اختلاف درجاته وما يعتري بعضهم من هوس واضطراب، كما تحدث عن المغنين والمغنيات ومجالس الطرب وأنواع الملاهي، وعن التعليم والمعلمين والأدباء والشعراء والقصاص والخطباء والمعوقين من العميان والعرجان والبرصان والبخلاء ونوادرهم الخ.. ولو أراد الباحث أن يحيط أو يستقصي الموضوعات التي كتبها الجاحظ لشق ذلك عليه (١٤١).

وقد لقيت شخصية الجاحظ الفكرية قبولاً وحضوراً عن الكثيرين من علماء عصره والعصور التالية ، كما لقيت انتقاداُ ومؤاخذة وطعناً من آخرين ؛ لكن الفائدة الحقة التي عادت على كتابات الجاحظ لم تكن من المحبين لأنهم قبلوا ما قدم الجاحظ وما أتت به كتاباته ، أما نفعه فقد أتاه من المناوئين

(١٤١) انظر مقال : الجاحظ والبصرة.. النبع والمصبّ .

والمناهضين لأفكاره وكتاباته لأنهم فتحوا المجال فسيحاً للقراءة المتأملة والمتمهلة لآثار الجاحظ وأعماله (١٤٢).

- **نماذج من مؤلفات الجاحظ :**

٢-من كتاب (البيان والتبيين) :

قال الجاحظ [١٤٣]:

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن

---

(١٤٢)صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء للجاحظ : علاء الدين رمضان ، مجلة جذور ، مج ١٤ ، سبتمبر ٢٠٠٣ ، ص ٣٥٦

(١٤٣) البيان والتبيين ، ٨٢/١ .

خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرحا.

قال أبو عثمان: وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكنا أخرّناه لبعض التدبير.

وقالوا: البيان بصر والعي عمى ، كما أن العلم بصر والجهل عمى. والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل. وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم. وقال صاحب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق المبين. وقالوا: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان.

وقال يونس بن حبيب: ليس لعيي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حك بيافوخه أعنان السماء.

وقالوا: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله. وقال ابن التوأم: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم.

قد قلنا في الدلالة باللفظ. فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا.

والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة. ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ..... إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا ..... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر:

وللقلب على القلب ..... دليل حين يلقاه

وفي الناس من الناس ..... مقاييس وأشباه

وفي العين غنى للمر ..... ء أن تنطق أفواه

وقال الآخر في هذا المعنى:

ومعشر صيد ذوي تجلّه ... ترى عليهم للندى أدلّه

وقال الآخر:

ترى عينها عيني فتعرف وحيها ..... وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره ... وتعرف بالنجوى الحديث المعمسا

وقال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ..... من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامته ..... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت.والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف. وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتقتل والتثني ، واستدعاء الشهوة ، وغير ذلك من الأمور.

قد قلنا في الدلالة بالإشارة. فأما الخط، فمما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه عليه السلام: اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ. وأقسم به في كتابه المنزل، على نبيه المرسل، حيث قال: ن. وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين. كما قالوا: قلة العيال أحد اليسارين .

وقالوا: القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا. وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام.وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن .